الجواب الكافى ..
عن سؤال الحائرين والمغرضين

هَل الإنسان مُسَيَّر أو مُخَيَّر؟

مع عرض لقضية الجبر والإختيار

تأليف
نبيل حمدي

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

الأزهـــــر
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـامة
للبحـوث والتـأليف والترجمـة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السـيد / نبيل محمد أحمد حمدي .....

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : هل الإنسان مسير أو مخير؟ مع عرض لقضية الجبر والاختيار تاليفكم ....

نفيد بان الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلاميه ولا مـانع من طبعـه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبـوية الشريفـة .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا في ١٢/٦/١٤١١ هـ
الموافق ٢٩/١٢/١٩٩٠ م

[مراجعة الأزهر الشريف للطبعة الأولى لهذا الكتاب]

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتماد مشيخة علماء الإسكندرية

بعد مراجعة أصل هذا الكتاب فلا مانع لدى المشيخة من طبع الكتاب ونشره على أوسع نطاق فى العالم الإسلامى ليتم النفع به .

والله المستعان ،

محمد محمد أبو خوابت
مدير المنطقة الأزهرية التعليمية
وشيخ علماء الإسكندرية
مايو ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

روجع هذا البحث وأرجو لصاحبه حسن القصد لينال جزيل الثواب ،
وأرجو لمن يطالعه أن ينفعه الله به ، وأن يهديه إلى صادق الإيمان والتسليم .
والله المستعان ،

أحمد المحلاوى
رئيس إتحاد علماء المساجد
بالإسكندرية
إبريل ١٩٧٨ م

كلمة إتحاد أئمة المساجد بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد الطليعة الأولى محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد ...

فإني إذ أقدم للقراء هذا الباحث المسلم وهو يعرض باكورة إنتاجه ، أقدمه وفى ذهنى صورة لشباب السلف الصالح الذين كانوا يطبقون العقيدة الإسلامية منهجاً وسلوكاً .

والكتاب الذى بين أيدينا (هل الإنسان مسير أو مخير ؟) يتكلم عن قضية من أخطر قضايا الفكر ، ولقد شغلت الفكر المعاصر وقتاً غير قصير من الزمان ، تكلمت فيها الفرق الكلامية على اختلاف مذاهبها فى الفكر ، وأثار ذلك الخلاف جدلاً طويلاً . وفى الحقيقة فإن أغلب الفرق قد سلكت فى بحث هذه القضية مسلكاً غريباً عن الإسلام فضاع منها طريق الوصول إلى الهدف الذى أرادت أن تخدمه .

أما مؤلف هذا الكتاب ، فلقد سلك فى كتابه مسلكا يقوم على كتاب الله وسنة رسول الله ، وهذا هو المنهج الذى يجب أن يسلكه كل باحث يتصدى للكتابة عن الإسلام ، فكتاب الله عز وجل قد حوى كل ما يطلبه المسلم من عقيدة ، وكذلك السنة الشارحة المبينة ، صلوات الله على صاحبها أفضل صلاة وتسليم .

ولذلك فإننا لسنا بحاجة إلى فكر فلسفى وافد للاستدلال على ما يحتاجه المسلم فى عقيدته فكل منهج بشرى غريب عن القواعد والأصول الإسلامية لا يمكن أن يحقق الإسلام فى النهاية ، فإلتزام المنهج فى الإسلام ضرورى للبحث فى القضايا الإسلامية التى تمس جوهر العقيدة .

ومؤلفنا الذى أقدم له هو من هذا الطراز ، عنده وفرة فى النصوص القرآنية ونصوص السنة المطهرة بالإضافة إلى ما يحسه فى وجدانه وأعماقه ، ولهذا السبب تراه يستشهد لك بالعديد من النصوص المقنعة ، لقد عايش المؤلف هذا البحث بفكرٍ واع ، وعقل يقظ ، وقلب متدبر .

ولقد عقدت اللجنة التى شكلها إتحاد أئمة المساجد جلسات مع المؤلف ناقشته فى كل جزئية من جزئيات هذا البحث ، وانتهت اللجنة إلى إجازته وتقديمه للقراء كنموذج للشباب حين يتصل ببيوت الله .

هذا ، وإنى آمل أن يَتبْع المؤلف هذا البحث ببحوث أخرى محاولا وضع لبنات على طريق النور ، طريق القرآن ، طريق الإسلام .

والله أسأل أن يوفق شباب الإسلام إلى ما فيه خير الإسلام إنه حسبى وعليه التكلان .

د / محمد محمود شحاته

وكيل إتحاد أئمة المساجد

بالإسكندرية

إبريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم ألهمنا الصواب فى القول ، والرشاد فى العمل ، والإخلاص فى النية ، والصدق فى العزيمة ، والثبات على العقيدة فإنك أفضل مسئول وأكرم مأمول .

وبعد فهذا الكتاب يعطى تصوراً أرجو أن يكون حقيقياً للإجابة عن السؤال الهام المحير الذى يتردد على أذهان كثير من الناس وهو : (هل الانسان مسير أو مخير ؟) ، ويجيب بأسلوب شيق وعبارات بسيطة واضحة عن الخواطر والتساؤلات المتعلقة بذلك الموضوع والتى تشغل أذهان معظم الشباب على وجه الخصوص فى محاولتهم للتوصل إلى إجابات وافية مقنعة تشبع رغباتهم فى الوصول إلى الحقيقة .

ولقد حرصت على أن أتناول هذا الموضوع بشىء من التفصيل لا يخالطه الملل وأن يكون أسلوبى سهلاً يسيرا يعتمد على الإقناع الكامل مستنداً فى ذلك إلى عديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تعمدت الإكثار منها لخدمة الموضوع وتحقيق الإقناع الكامل عن طريق التعرض للمعانى الدفينة الخفية فى تلك الآيات والأحاديث التى يجد فيها معظم الناس كثيراً من التناقضات والغموض .

وقضية الجبر والاختيار تأتى فى المقام الثالث من حيث خطورتها وأهميتها بعد قضية الذات الإلهية وقضية كمال الصفات الإلهية لأنها تتعلق بصلب الدين وكثيراً ما حامت حولها الشكوك ونشأت عنها تطاحنات وتعصب فى الآراء نتج عنها مذاهب عديدة كالمعتزلة وأهل السنة كل مذهب يدعو إلى أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الذين يطرحون عديداً من الأسئلة التى تتعلق بقضية الجبر والإختيار تنم عن الريبة والشك هم صنفان : صنف توفر له حسن النية يبغى الوصول إلى إجابات وافية للأسئلة والخواطر الملحة التى تجول بخاطره ، وصنف فسدت نواياه لا يبغى الحقيقة وإنما نشر السموم وإحاطة القضية بهالة من الشكوك طعناً فى الأديان عامة وفى الإسلام خاصة .

فمن الناس من يتساءل : (إذا كانت كل الأمور تسير وفقاً لمشيئة الله وأن الله عز وجل أراد لها أن تحدث فما ذنبنا نحن ولماذا يحاسبنا الله عما ارتكبناه من خطايا وآثام ؟) .

ومنهم من يتساءل : (إذا كان الله عز وجل يعلم مصيرنا وما سيحدث لنا فى الدنيا وفى الآخرة ، وهل نحن من أصحاب الجنة أو من أصحاب النار فلماذا يتركنا فى الدنيا حيث التعب والمشقة ؟ وإذا كانت كل الأمور بيدى الله عز وجل فلماذا يجعلنا نخطىء ؟) .

فمن أجل هذه التساؤلات الضالة والآراء المسمومة نجد هؤلاء الناس لا يقدمون ولا يقبلون على فعل الخيرات زاعمين أن الله عز وجل إنما أراد لهم أن يكونوا بهذا الوضع وبهذا الشقاء ، فلا جدوى إذن من التمسك بالدين والتسابق فى فعل الخيرات ، وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ ٣١ : المدثر

يفسرون هذه الآية وما يشابهها من الآيات الأخريات تفسيراً سطحياً بعيداً كل البعد عن المعنى والتفسير السليم ، وهذه هى عادتهم دائماً ينتقون من القرآن الكريم ما يعتقدون بأنه يؤيد آراءهم ويتركون صريح الآيات .

والغالبية العظمى من الناس بطبيعتها لا تعترف بأخطائها ولكنها تلتمس الحجج والمبررات لكى ترفع عن عاتقها هذه الخطايا وتتظاهر بأنها صاحبة الحق ﴿ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلا ﴾ ٥٤ : الكهف .

إذا كان هؤلاء الناس لا يتمسكون بالدين ولا يسيرون فى دأب الصالحين ، وحجتهم فى ذلك أن الله إنما أراد لهم أن يكونوا كذلك يضل من يشاء ويهدى من

يشاء ، وأن الإنسان لا ينال أكثر من نصيبه ، فلماذا إذن لا يتصرفون نفس هذه التصرفات فى جمع المال أو العلم أو الجاه أو النفوذ ، فمن هؤلاء الناس من يتسابقون فى طلب العلم والإستزادة منه وفى جمع المال بشتى الطرق ، وفى الوصول إلى منصب ومركز مرموق ، وشعارهم فى هذا لكل مجتهد نصيب ، وأنهم يستطيعون أن يصلوا إلى ذلك كله بالكفاح والعرق والجهد ! ؟؟

لماذا لا يطبقون هذه الآراء فى نظرتهم إلى الدين ؟ فما يتعلق بالدين يعتبرونه من فعل القدر ، وما يتعلق بالدنيا يعتبرونه من فعلهم هم ولا دخل للقدر فيه .

والحقيقة أن الإنسان له دخل فى أمور الدنيا والدين ، وأيضاً القدر له دخل فى أمور الدين والدنيا ولكن علاقة تدخل الإنسان وتدخل القدر هى علاقة لا تناقض فيها ولا يتسبب عنها إجبار للإنسان فى أن يفعل خيراً أو شراً .

إذا نظرنا إلى آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه يوجد نوعين من الآيات : آيات محكمات ، وآيات متشابهات .

الآيات المحكمات :

هى الآيات التى لا يختلف عليها إثنان فى المعنى فمعناها ظاهر وواضح للجميع كمثل قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة المسماه بسورة الإخلاص جميعها محكمات وتشير إلى أن الله أحد فى ذاته ، وواحد لا شريك له ، وأنه هو الصمد ، وليس له نظير فى صفاته .

أما الآيات المتشابهات :

فهى الآيات التى تحمل أكثر من معنى . كمثل قوله تعالى :

﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ التحريم ـــ ١٢ .

فى حديثه تعالى عن عيسى عليه السلام وأمه مريم ، يفسرها كل إنسان حسب أهوائه الشخصية ويتمسك بها المتشككون وضعاف الإيمان ليقيموا الحجة على صحة اعتقاداتهم الخاطئة ويتركون ما عداها من الآيات المحكمات بينما المعانى الحقيقية للآيات المتشابهات

هى تماما ما نصت عليه الآيات المحكمات من معانى فهى المرجع لكل الالتباسات وفى هذا يقول تعالى :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ آل عمران ـــ ٧

ومن الآيات المتشابهات فى موضوعنا الذى نحن بصدده (الجبر والإختيار) قوله تعالى :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ ٣١ ـــ المدثر .

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ ـــ التكوير .

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ١٣ ـــ السجدة .

هذه الآيات تشعر الانسان الذى لا يتدبر جيداً معانى القرآن الكريم ولا يتعرف على أصول دينه ومنهاجه ، تشعره بنوع من الشك والخواطر الباطلة بأنه ربما يكون هناك ظلم على الإنسان وأن الشقى لا دخل له فى شقائه وإنما قدر عليه أن يكون كذلك .

أما الآيات المحكمات التى تتناول قضية الجبر والاختيار والتى تعتبر المرجع والخلاصة لهذه الآيات المتشابهات والتى توفر على الإنسان عناء المشقة فى إيجاد معنى صحيح للآيات المتشابهات وتلغى الأقاويل والتفاسير الباطلة فهى قوله تعالى :

﴿ وما ربك بظلامٍ للعبيد ﴾ ٤٦ ـــ فصلت

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ٤٤ ـــ يونس .

﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ٥٤ ـــ يس

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ٤٧ ـــ الأنبياء .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ ٤٩ ـــ الكهف .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ٧ ، ٨ — الزلزلة .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ١٧٧ — هود

﴿ إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ١١ — الرعد .

وطالما أن كلام الله صدق وأنه هو الحق وأن كلامه حق وأن القرآن هو كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميد ، وأن الله هو المقسط العادل . فلماذا إذن لا نقنع بهذه الآية القرآنية المحكمة ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ ٥١ الأنفال ، ونجعلها نصب أعيننا ولا يهمنا بعد ذلك إن كان الانسان مسيراً أم مخيراً طالما أنه لا ظلم عليه وأنه سيأخذ حقه كاملا ونبعد عن أى تفسير وهمى خاطىء للآيات المتشابهات ؟ .

ومع ذلك فلأن كثيراً من الناس لا يقنعون بذلك ولا يريدون بالآيات المتشابهات بديلاً ويرون أنها تناقض فى المعنى الآيات المحكمات فسوف أحاول بمشيئة الله توضيح معانى هذه الآيات وتوضيح مدى انسجامها فى المعنى وإعطاء صورة أرجو أن تكون واضحة لقضية الجبر والإختيار . وحرصاً على سهولة الإلمام بذلك الموضوع فقد وضعت فى آخر هذا الكتاب تلخيصاً شاملا لجوانب الموضوع الرئيسية حتى يسهل على القارىء بعد فراغه من القراءة الإحاطة بالأفكار العديدة المتشعبة والنقاط الهامة التى تعالج هذه القضية .

ولا يفوتنى أن أتقدم بعظيم الشكر والإمتنان لفضيلة الشيخ محمد محمد أبو خوات شيخ علماء الإسكندرية ، وفضيلة الشيخ أحمد المحلاوى رئيس إتحاد علماء المساجد بالإسكندرية ، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد محمود شحاته وكيل الإتحاد ، وفضيلة الشيخ عبد رب النبى توفيق ، على ما بذلوه من جهد مشكور فى مراجعة هذا البحث ...

والله أسأل أن يوفقنا وينفعنا به ويرزقنا الإخلاص فى العمل ، ويثبت الإيمان فى قلوبنا إيماناً خالصاً لا يخالطه شك أو ارتياب إنه سميع الدعاء .

نبيل حمدى

الباب الأول

المبحث الأول

تحليل لمعانى الآيات المتشابهات

نلاحظ فى الآيات المتشابهات أن صفة المشيئة أو الإرادة تتكرر وتتعدد فيها مثل قوله تعالى :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ ٣١ ــ المدثر

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ ــ التكوير .

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ١٣ ــ السجدة .

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ﴾ ٩٩ ــ يونس .

وهناك فرق فى المعنى بين يشاء أو يريد وبين يحب أو يرضى فالمشيئة معناها الإرادة بينما الحب معناه الرضا وكلا المعنيين مختلف تماماً عن الآخر فالإرادة والمشيئة ليستا هما الحب والرضا فليس معنى أن الله يريد شيئاً أنه حتما يحبه أو يرضى عنه ولكنه يريده لحكمة بالغة فالله يريد الخير والشر على السواء ولكنه يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا بالخير فقط .

والدليل على أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد الخير قوله تعالى :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) .

ومعنى من يشاء أى من يريد

أما الأدلة على أنه تعالى يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا بالخير فقط قوله تعالى :

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ٢٢٢ ــ البقرة .

﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ٥٨ ــ الأنفال .

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ٣١ ــ آل عمران

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ١٨ ــ الفتح

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٤ ــ الصف .

فالله سبحانه وتعالى يريد الخير والشر ويأذن للشر بالحدوث لحكمة بالغة ولكنه يحب الخير فقط ويرضى به ويكره الشر ويذم أهله .

وما ينطبق على الحب والرضا ينطبق أيضاً على الأمر الإلهى فالله لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر يقول تعالى :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ ٩٠ ــ النحل .

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ ٢٨ ــ الأعراف .

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ٥٨ ــ النساء .

مما سبق يتضح لنا أن مجال الإرادة والمشيئة هو الخير والشر معا أما مجال الحب والرضا والأمر فهو الخير وحده .

المبحث الثانى

الحكمة فى حدوث الشر

ويأتى هنا السؤال الذى يخطر على الأذهان وهو : لماذا يريد الله الشر كما يريد الخير ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن الله الذى لا إله سواه الملك الحق المبين من الواجب أن يتصف بصفات الكمال المطلق التى تتفق ومقتضيات الإلوهية وأحقية الملك .

فمقتضيات الألوهية تعنى إتصافه بأسمائه الحسنى أما أحقيته بالملك كملك حق مبين فهى تعنى إتصافه بما يحقق له الإنفراد بهذه الصفة دون سائر ملوك الأرض الذين يملكون مالا يستحقون ويعيشون كملوك مزيفين على هامش الملك الذى لا يحق إلا لله وحده .

وأحقية الملك لله عز وجل ليست فقط لأنه خالقه ولكنها أيضاً بسبب إحاطته عز وجل بهذا الملك العظيم إحاطة كاملة علماً وقدرة وسيطرة ومشيئة وإرادة .

الله جل شأنه ملك حق مبين لثلاثة أسباب متكاملة وهى أنه خالق لما يملك وعليم بأحوال ما يملك وباسط مشيئته وجبروته وسلطانه على أرجاء ما يملك .

فهو خالق وعليم وقادر ولهذا إستحق أن ينفرد بأحقيته للملك دون غيره من ملوك الأرض .

وإذا نظرنا لآيات القرآن الكريم وجدناها مليئة بهذه المعانى الواضحة حيث يقول تعالى .

﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ ١٢ — الطلاق .

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ ٦١ — يونس .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ ٥٩ ــ الأنعام .

﴿ إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ ١٦ ــ لقمان .

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾ ٧ ــ المجادلة .

إن علم الله ليس وحده الذى أحاط بهذا الكون ولكن قدرته ومشيئته أيضاً قد أحاطتا بهذا الكون وسيطرتا على هذا الوجود بأكمله بحيث إنه ما من شىء يحدث فى هذا الكون قليل أو كثير خيراً كان أم شراً إلا بإذن من الله وإراده ومشيئة منه سبحانه وإلا ما حدث فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فما من شىء يحدث فى ملك الله إلا بعد أن يأخذ الإذن والمشيئة من الله فلا بد أولا من العرض على الله ثم المشيئة لها بالحدوث حتى تحدث ولذلك يقول تعالى :

﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ٢٣ ــ الكهف .

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ ــ التكوير .

إذن فالله يريد للشر أن يحدث مع بغضه له كما يريد للخير أن يحدث مع حبه له .

والشر الذى نعنيه الآن ليس الذى يصاب به الإنسان بفعل القدر الاجبارى كالزلازل والصواعق والمصائب والنكبات وإنما الشر الذى يرتكبه الإنسان فى حق أخيه الإنسان كسرقته أو قتله أو الإعتداء عليه بالإضرار أو الفحش وهو أيضاً الشر الذى يرتكبه فى حق نفسه بإسرافه فى الشهوات والمحرمات وإجتنابه طاعة الله .

إن حكمته عز وجل فى حدوث بعض النماذج من الشر كثيرة ومتعددة نذكر منها :

أولا : تمييز الخبيث من الطيب فلو أن الله لم يأذن للشر بأن يحدث فى ملكه لوحدنا أن السرقة والقتل وغيرها من الفواحش لن تحدث مما يجعل الناس متساوين فى

ترك المنكرات وما أمكن التفرقه بين الخبيث والطيب والصالح والطالح ولا أقيمت الحجة على المذهب يوم القيامة فالإنسان بطبيعته مجادل ولا يرضى أن ينسب إليه الفسوق من غير دليل أو برهان يقول تعالى : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ ٣٧ ـــ الأنفال .

من أجل ذلك فإن الله عز وجل يقيم على عبده الحجة البالغة فيُشهد عليه رفاقه وقرناء السوء وكل من اطلع على معصيته ويُشهد عليه ملائكته الكرام الكتبه يقول تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ١٧ ، ١٨ ـــ ق .

ويقول تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ ١٠ ، ١١ ، ١٢ ـــ الإنفطار ، ليس هذا فحسب بل إن الله عز وجل يُشهد عليه الأرض التى ارتكب عليها المعصية قال رسول الله ﷺ لأصحابه فى معنى قوله تعالى ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ﴾ ٤ ، ٥ ـــ الزلزلة ، قال « أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا ، كذا وكذا ، فهذه أخبارها » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح . والله عز وجل فوق هؤلاء جميعاً مطلع على عبده يسمعه فى السر والجهر ويراه ويراقبه ويعلم ظاهر عمله وباطنه وما يدور فى خُلده وما يخفيه فى صدره وما يضمره فى قلبه وما ينويه بعمله لا يعلم ذلك إلا الله لأنه عليم بذات الصدور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ١٤ ـــ الملك .

وكثير من الناس يجادلون بالباطل يقول تعالى ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾ ٥٤ ـــ الكهف ، فإذا أنكر العبد الفاجر ما اقترفه من الإثم ولم يعترف بشهادة أحد غيره فإن الله عز وجل يُخرج سريرته المكنونة فتظهر وتتكشف وتتعرى ويفضحه على رؤوس الأشهاد يقول تعالى ﴿ يوم تُبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ﴾ ٩ ، ١٠ ـــ الطارق ، ثم يختم على فيه ويأمر جوارحه فتنطق يقول تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٦٥ ـــ يس .

ويقول تعالى ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ٢٤ ـــ النور .

ويقول تعالى ﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ ٢٠ ، ٢١ ــ فصلت ، وفى معنى هذه الآيات الكريمة يقول رسول الله ﷺ عن مجادلة العبد لربه يوم القيامة « يقول العبد : ربِ ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز علىّ إلا شاهدا من نفسى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهود فيختم على فيه ويقال لأركانه أنطقى فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعداً لكُنّ وسحقاً فعنكُنّ كنت أناضل » أخرجه الحافظ البزار ورواه مسلم والنسائى بنحوه .

فحكمة الله أن يتصارع الخير مع الشر حتى إذا كان يوم القيامة يقال للعبد : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ١٤ الإسراء .

ثانيا : إن الله عز وجل قد يسمح للشر أن يحدث لكى ينتقم من المجنى عليه الذى لحقه الضرر عن طريق الجانى فقد يكون المجنى عليه رجلا مجرماً فى حق العباد وفى حق الله فربما يكون ظالماً عانى من ظلمه أناس كثيرون وقد يكون مداوماً على المعاصى والذنوب مضيعاً لحقوق الله .

وإذا كان الإنسان متصفاً بهذه الصفات سلط الله عليه من يذيقه سوء العذاب . ومن أجل ذلك نتوجه جميعاً إلى الله عز وجل قائلين : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا » .

وكلنا نعلم أن الله عز وجل قد يعجل للظالم العقوبة فى حياته قبل مماته فيسلط عليه من يظلمه ويصيبه بالأذى والضرر هذا فضلا عما ينتظره فى الآخرة من عذاب الله وعقابه .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » أخرجه الشيخان .

وقال ﷺ فى حديث آخر (ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حين يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذى .

وقال رسول الله ﷺ « اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » متفق عليه ، وقال « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » رواه مسلم

وقال تعالى فى حديثه القدسى « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » رواه مسلم . ويبين الله عز وجل انتقامه من أولئك الظالمين بسبب ظلمهم فيقول فى كتابه العزيز :

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ ١٠٢ — هود

من هذا يتبين أن الله عز وجل قد يأذن للشر أن يصاب به المجنى عليه عن طريق الجانى إنتقاما من المجنى عليه بسبب ظلمه للناس وتهاونه فى حق الله .

ثالثاً : إن ما يراه الناس شراً قد يكون خيراً لهم وإن ما يرونه خيراً قد يكون شراً لهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ١٢٦ — البقرة

فقد يأذن الله للشر أن يحدث ويكون فى حدوثه الخير كل الخير أو دفعاً لشر أكبر فقد يسرق المال ولو بقى المال فربما أفسد صاحبه وأبعده عن طريق الله ، وقد يقتل الإبن ولو عاش لأصبح عاقاً لوالديه ولأرهقهما طغيانا وكفراً ، وقد يتم الطلاق ولو استمر الزواج لأفسد على الزوج أو الزوجة أو الإثنين معا دنياهما وآخرتهما ألم يقل الله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ ١٤ التغابن .

وقد يُقتل ملك عادل ويكون خليفته أرجح منه عقلا وأكثر منه عدلا ، وقد يُقتل مظلوم قد استقامت حياته ولو ترك لفتنته الدنيا وما استقامت حياته ولكان من أهل النار ، وقد يذنب العبد ولكن ذنوبه قد تكون دافعاً له إلى التوبة والاستقامة على الطريق الخير أكثر من استقامته قبل اقترافه الذنوب .

كل هذه المعانى نجدها فى الأقوال المأثورة « مصائب قوم عند قوم فوائد » ، « رب ضارة نافعة » . والشر والخير يساهمان معاً فى حفظ توازن الحياة الدنيا ولا غنى

لأحدهما عن الآخر ولا غنى للدنيا عنهما فهما للدنيا كالجناحين للطائر وعلى قدر ما تم انجازه من الخير أو الشر تتحدد مصائر كثير من الناس ويتم تدوين وتأسيس تاريخ وحضارات شعوب وأمم بأكملها .

رابعاً : إن الشر الذى يأذن الله عز وجل بأن يصاب به المؤمن يجزيه عنه خير الجزاء وفى هذا يقول النبى عليه الصلاة والسلام « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » متفق عليه ، ويقول عليه الصلاة والسلام « ما من مسلم يصيبه أذى شوكه فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها » متفق عليه ، ويختلف أجر المسلم تبعا لفداحة الشر الذى يصاب به وصبره عليه ،

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

خامساً : إن الشر الذى يصاب به العباد قد يكون إمتحاناً لهم لتحديد موقفهم من الايمان بربهم فمنهم الصادقون ومنهم الكاذبون وامتحاناً لعزيمتهم وصبرهم على الشدائد يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ الأنبياء

﴿ ألم : أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ ـــ ٣ : العنكبوت

سادساً : إن الخير ذاته الذى يحبه الله ويرضى عنه ويأمر به لن يوجد ولن تستبين معالمه إلا إذا وجد جانب الشر فلولا الكفر والعدوان ما وجد الجهاد ولولا الفساد ما وجد الإصلاح ولولا الجهل ما وجد العلم ولولا الرق ما وجد العتق ولولا الظلم ما وجد العدل ولولا القبح ما وجد الجمال ولولا الجمال ولولا الفقر ما وجد الإحسان ولولا الذنوب ما وجدت التوبة .

ولذلك شاءت حكمة الله أن يأذن للشر بالحدوث حتى يجد الخير مجالا لممارسة رسالته .

سابعاً : إن الله عز وجل له أسماء وصفات يحب أن تظهر آثارها فى خلقه فإن ذلك من لوازم كماله ، فالله غفور يحب المغفرة وإن كره معاصى العباد . ألم يقل النبى ﷺ « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر الله لهم » رواه مسلم ، وفى رواية أخرى لمسلم « لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

والله ستار يحب الستر وإن كره الفواحش التى يستر عليها عبده ، والله عفو يحب العفو وإن كره الذنوب التى يعفو عنها ، والله تواب يحب التوبة وإن كره ما اقترفه العبد من الآثام التى تستحق التوبة .

والله يحب لعبيده أن يتصفوا ببعض صفاته ، فالله كريم يحب الكرماء ولن يكونوا كذلك إلا إذا أفتتنوا بالبخلاء ، والله عليم يحب العلماء ولن يكونوا كذلك إلا إذا قاوموا الجهلاء ، والله صادق يحب الصادقين ولن يكونوا كذلك إلا إذا امتحنوا بالكذابين ، والله مقسط يحب المقسطين ولن يكونا كذلك إلا إذا ناهضوا الظالمين ، والله بر يحب الأبرار ولن يكونوا كذلك حتى يعتزلوا الفجار ، والله رحيم يحب الرحماء ولن يكونوا كذلك حتى يتجنبوا الغلظاء قساة القلوب .

من أجل ذلك كان لابد للخير والشر أن يسيرا جنباً إلى جنب على طريق الحياة وأن يتصارعا حتى تقوم الساعة والناس على ماهم عليه صنفان : منهم من يعمل الخير ، ومنهم من يعمل الشر ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

مما سبق تتبين لنا الحكمة التى من أجلها يأذن الله تبارك وتعالى للشر الذى يرتكبه الإنسان فى حق أخيه الإنسان أن يحدث فى ملكه « وما الله يريد ظلماً للعباد » .

المبحث الثالث

متى يأذن الله للشر أن يحدث ؟

قضت سنة الله تعالى أنه لا يأذن للشر أن يحدث إلا بعد أن يعزم صاحبه فى علم الله السابق على فعل هذا الشر بمحض إرادته ويعد نفسه لذلك ويشرع فى هذا الفعل الشرير بمحض إرادته سواء أكان هذا الفعل سرقة أو قتلا أو فحشاً ولا يتبقى بعد ذلك إلا أن يأذن الله لهذا الفعل أن يحدث فى ملكه ، فالله هنا لم يظلمه ولكنه هو الذى ظلم نفسه ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ، ٤٤ — يونس

قد يحدث أن يسير شخصان فى الطريق ويدخل أحدهما المسجد بينما يدخل الآخر الملهى الليلى !! فهل أجبر الله أحداً منهما على أن يسلك ذلك المسلك ؟؟ .

لا والله إن الله لم يجبر أحداً منهما على ذلك ولكنه اطلع على ضمائرهما فعلم أن أحدهما يريد أن يدخل المسجد فيسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا فى ملكه فحدث ، واطلع الله أيضا على ضمير الآخر فعلم بأنه عاقد العزم بل ومصمم على أن يدخل الملهى الليلى فيسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا فى ملكه فحدث على كره ومقت وغضب من الله . يقول تعالى موضحاً هذه المعانى :

﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ ٥ — ١٠ الليل .

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ ١٨ — ٢٠ : الإسراء .

وهناك نوعان من العصاة : صنف قد اعترف بذنبه ، وكلما اقترف إثما أناب إلى ربه فاستنارت نفسه ورقّ قلبه وانقشع ما به من الظلمات وكان قريبا من رحمة الله وغفرانه . وصنف آخر أصرّ على عصيانه وتكبر ولم يعترف بخطيئته وجحد نعمة ربه ولم يلتمس عند الله العفو والصفح والمغفرة ، وزين له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فزادته ذنوبه جحوداً واسود قلبه تماما ولم يُترك فيه قبس من النور أو شعاع من أمل الهداية والرجوع إلى الله ومات ضميره فلم يعد يشعر بالندم على ما ارتكبه من الضلال والفساد فقطع بذلك كل السبل التى توصله بخالقه وفشلت كل المحاولات البشرية لإصلاحه ولم يعد يرجى منه مثقال ذرة من خير . وهذا الصنف من الناس لم يعد عاصياً فحسب بل أصبح زعيما من زعماء الكفر والضلال وجندياً من جنود إبليس وداعية من دعاة النار .

هذا الصنف من الناس ليس عجباً أن يحرمهم الله من مغفرته ويقول لنبيه عليه الصلاة والسلام :

﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ٦ — المنافقون .

ولم يظلمهم الله حينما لعنهم وأبقى على ما فى قلوبهم إلى يوم يلقونه مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ءَ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ ٦ ، ٧ — البقرة .

وقوله تعالى :

﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ ٧٧ — التوبة .

والله تعالى علم مسبقاً أن قوم نوح صغيرهم وكبيرهم فريق منهم ينتمون وفريق منهم سينتمون إلى هذا الصنف الأخير من العصاة ولن تلين قلوبهم أبداً بالإيمان ، فقال لنبيه نوح عليه السلام :

« وأُوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ٣٦ ـــ هود .

ثم ما لبث أن أهلكهم بالطوفان الأعظم ، فلم يترك صغيرهم ولا كبيرهم .

والله عز وجل لم يظلم من أهلكهم ولم يظلم من حرمهم من مغفرته ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، فانظروا إلى قوله تعالى :

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ١١٧ ـــ هود ، وسنته جل شأنه فى إهلاك أهل القرى تتضح فى قوله تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ ١٦ ـــ الإسراء .

ويمكننا من هذه الآية الكريمة الإستدلال على أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد الخير إلا أن إرادته الشر لا تتحقق إلا بعد أن يأمر أهل القرى ممن اعتادوا الترف والفساد أن يمتثلوا لطاعته وينتهوا عن نواهيه ، فلما تمردوا على طاعته وأصروا على ارتكاب ما نهاهم عنه حقت عليهم كلمة العذاب وحل عليهم الخراب والدمار .

وهذا الصنف من العصاة الذين مردوا على الكفر فلا يرضون به بديلا وتحصنوا ضد الايمان فاستحال على نور الايمان أن يصل إلى قلوبهم واستحقوا سخط الله وعقابه بعد فشلت كل المحاولات البشرية فى هدايتهم وتقديم النصح لهم ، فلا عجب بعد ذلك أن يزيدهم الله مرضاً إلى مرضهم وضلالاً إلى ضلالهم ، ولذلك يقول تعالى :

﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ ١٠ ـــ البقرة .

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ ٣٤ ـــ غافر .

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ٥ ـــ الصف .

﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ٧٥ ـــ مريم .

وما يصدق على أهل الضلال يصدق أيضاً على أهل الهدى :

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ ١٧ ـــ محمد .

فإذا عرضت علينا الآية القرآنية :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ ١٢٥ ـــ الأنعام .

لا ينبغى لنا أن نشك فى عدالة الله ونعتقد بأن الهداية والضلال صفتين قد ألزم الله بهما عباده جبراً وقهراً بل إننا لو تدبرنا الأمر لوجدنا أن آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضاً ، فمن هم الذين يريد الله أن يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام ؟ .

هؤلاء هم الذين قال عنهم الله :

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ .

أى الذين أخذوا بأسباب الهدى وأقبلوا على مرضات الله وطاعته طامعين فى الهداية فلم تبخل عليهم عناية الله وقذف الله فى قلوبهم الهدى وشرح صدورهم للإسلام .

ومن هم الذين أراد الله أن يضلهم وأضاق صدورهم ؟ .

هؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ الذى يسرف فى ارتكاب المعاصى والآثام ، والدافع له إلى ذلك إنكاره ما وعد الله به عباده من البعث والحساب والجنة والنار ، فكانت هذه الريبة دافعاً له إلى الإسراف فى المحرمات والشهوات دون خوف من رقيب أو أمل فى نعيم .

وهؤلاء الذين أضلهم الله وأضاق صدورهم هم أيضاً الظالمون لقوله تعالى : ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ ٢٧ ـــ إبراهيم .

وهم أيضاً الغارقون فى الضلال فى كل أمورهم وشئونهم وأحوالهم فأمدهم الله فى ضلالهم لقوله تعالى :

﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ٧٥ ـــ مريم .

ومما لا شك فيه أننا نجد أنفسنا أمام المعنى السليم للآية الكريمة :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ ٣١ ـــ المدثر .

فليس معنى « من يشاء » أننا أمام مشيئة عشوائية تلزم أناساً بالضلال وتلزم آخرين بالهداية ، تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً ، ولكن معناها أن الله يضل من يريد بسبب استحقاقه للضلال للأسباب التى ذكرناها ويهدى من يريد بسبب استحقاقه للهداية للأسباب التى ذكرناها أيضاً ، والله لا يحابى بعضاً من خلقه على حساب البعض الآخر وإنما جميعهم أمام الله سواء لا يتفاضلون إلا بمقدار التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ١٣ ـــ الحجرات .

وقد يعود الضمير فى لفظ « من يشاء » فى الآية الكريمة السابقة إلى الإنسان نفسه ، ويكون معناها أن الله يضل من يريد لنفسه الضلال باتباعه الطرق المؤدية لذلك ، ويهدى من يريد لنفسه الهداية باتباعه الطرق المؤدية لذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ ـــ الكهف .

وكلا المعنيين على كل حال يعطى البراهين على عدالة الله المطلقة ويرفع عن الإنسان الظلم والإلزام .

من هذا يتبين أن الله عز وجل يترك المبادرة بالنية دائما لك ثم بعد ذلك يأتى قضاؤه فيزيدك مرضاً إذا أضمرت فى قلبك المرض ويهديك إذا بادرت فى سريرتك بميل إلى الهدى ويصرفك عن الهدى إذا أضمرت فى نفسك الكبر والجحود .

إن منطقة الضمير متروكة دائماً لك لتبادر بما تشاء وبعد ذلك ينزل عليك القضاء ويحق عليك القول .

إن فصل الخطاب فى هذه المسألة والذى أوجز ما سبق ذكره هو قوله تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ ٢٣ ـــ الجاثية . نعم لقد أضله الله على علم منه سبحانه بأنه مستحق لذلك أنتقاماً منه لأنه أخذ بأسباب الضلالة وأعرض عن أسباب الهداية فكان جزاؤه أن ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، ثم ختمت الآية الكريمة باقرار أن لا أحد يهديه بعد أن أضله الله ، أليست

هذه الخاتمة تتفق تماماً مع المعنى الوارد فى قوله تعالى ﴿ ومن يضلل الله. فما له من هاد ، ومن يهدِ الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ ٣٦ ، ٣٧ — الزمر .

المبحث الرابع
موقف الجانى والمجنى عليه من قضية الجبر والإختيار

نعود إلى موضوعنا الذى نحن بصدده وهو أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد الخير وأن الله وهو الملك الحق المبين لا ينبغى للخير ولا للشر أن يحدثا فى ملكه إلا بعلمه وبمشيئته وموافقته ومن أجل ذلك نجد أن بعض جرائم السرقة والقتل والزنا لا تتم رغم توفر الإصرار والعزم والشروع عند من تهيأ لارتكاب هذه الجرائم ذلك لأن الله عز وجل لم يرد لهذه الجرائم أن تحدث فى ملكه إما بسبب رحمته بالمجنى عليه أو بسبب رحمته بالجانى نفسه لعله يسير فى دأب الصالحين أو بسبب رحمته بالإثنين معاً أو لأى سبب آخر . وكان لابد لمشيئة الله أن تتدخل بالرفض أو الايجاب لأن وقوع الشر يترتب عليه ظروف تتحكم فى مصائر الناس وقد تغير من برنامج الحياة بأكمله فالقتل يترتب عليه إنهاء حياة المجنى عليه وغلق سجل أعماله فى الدنيا خيراً كان أم شراً وإقامة الحد على الجانى فقتله أو إلحاق الضرر به ، و الزنا قد يترتب عليه طلاق أو تشرد أو إنحراف فى السلوك الإجتماعى وإقامة الحد على المعتدى أو إلحاق الضرر به ، وكم ساهمت إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكى فى التحكم فى مصائر الناس .

والله عز وجل فعال لما يريد فإذا أذن للشر أن يحدث لم يك ظالماً وإذا لم يرد له أن يحدث كان ذلك من مقتضيات رحمته .

وربما يتساءل بعض الناس إذا كان إرتكاب الجانى لجريمته يترتب عليه إقامة الحد عليه أو إلحاق الضرر به والتحكم فى مصيره فى الحياة الدنيا فما ذنب المجنى عليه أن يتحدد مصيره بما أصابه من جريمة الجانى ؟

ومن الممكن إصاغة السؤال بطريقة أخرى .... ماذنب من مات أو قُتل فى ريعان شبابه ولم يدخر قسطاً كبيراً من الأعمال الصالحة وغيره من الناس يعيشون ويعمرون فى هذه الحياة الدنيا ؟ .

للإجابة على هذا السؤال نقول بأن الحياة والممات هى من الأمور القدرية التى اختص الله بها نفسه وهى من حق الإله الخالق وحده ولا ينبغى للمخلوقات أن تتدخل فيها ، فكما أن الإنسان مسير فى ولادته فهو أيضاً مسير فى مماته وينبغى على الإنسان أن يقبل على طاعة الله ويتجنب معصيته منذ بلوغه السس الذى يستطيع عنده التمييز بين الخير والشر ولا يركن إل طول البقاء فإن الموت يأتى بغتة وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح وإذا أصبح فلا ينتظر المساء ، وما أصدق قول النبى ﷺ « فليأخذ الإنسان من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن شبابه قبل هرمه ومن صحته قبل سقمه ومں حياته قبل مماته فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا مں دار إلا الجنة أو النار » ويحذرنا الله عز وجل من التسويف فى الخيرات فيقول :

﴿ وأنفقوا مں ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول ربِ لولا أخرتنى إلى أجلٍ قريبٍ فأصدق وأكن مں الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ ١٠ ، ١١ المنافقون .

ولو علم الناس أعمارهم ما عمروا الأرض ولا أقاموا الحضارات ولا تزودوا بالأمل ولفسدت معيشتهم فى الحياة الدنيا .

ولو علموا أعمارهم لعبدوا الله خوفا مضطرين غير مخيرين ولضاع عندهم ميزان العقل فى أن يختار الهدى أو الضلال .

ولو علم المعمرون أعمارهم لأخروا التوبة ولا عتكف الذين قصرت حياتهم للعبادة ليل نهار ولو تساوت أعمار الناس لسارت الحياة على وتيرة واحدة دون تغـــيير ولا تبديل . هذا فيما يتعلق بميزان الأعمار فى الحياة الدنيا .

أما ما يتعلق بشئون الآخرة فإن طول العمر قد يكون نعمة وقد يكون نقمة وإذا كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله فإن شرهم من طال عمره وساء عمله ، ألم

يقل رسول الله ﷺ داعياً ربه « اللهم اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » ؟ رواه مسلم .

وفى رواية للبخارى « اللهـم أحينـى ما كانت الحيـاة خيراً لى ، وتوفنـى إذا كانت

الوفاة خيراً لى » .

وتحديد الآجال ليس ظلما من الله لأحد من خلقه لأنه بعث إليهم النبيين وأنزل معهم الكتب والرسالات السماوية تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتحذرهم المعصيه وتعرفهم طريقى السعادة والشقاء وتقربهم من الجنة وتبعدهم عن النار . أليس من حق الله بعد ذلك أن يقبض إليه من يشاء من خلقه وقتما شاء طاوياً له صحيفة عمله سائلاً إياه عما قدم وأخر ؟ .

ولنضرب مثلاً لذلك ولله المثل الأعلى .... أليس من حق المعلم بعد أن يتناول المنهج بالشرح الوافى الدقيق أن يجرى امتحاناً فى هذا المنهج لمن يشاء من تلاميذه وقتما شاء ؟ .

المبحث الخامس
مصادر الخيـــر

ذكرنا أن الله عز وجل يريد الخير ويريد الشر ولكنه لا يحب إلا الخير فقط ويكره الشر ويذم أهله .

ولكى يبين الله لعباده الخير من التر ويعرفهم ما يحبه مما يكرهه بعث إليهم الأنبياء والمرسلين بالكتب والأديان السماوية يأمرهم فيها بأن يفعلوا أشياء ويتجنبوا أشياء ستكون هى ميزان الصالح من الفاسد يوم القيامة وسيحاسب على أساسها العبد حتى لا يكون للإنسان حجة ثم تركهم وشأنهم يفعلون وفقاً لما تمليه عليهم عقولهم من خير أو شر بمحض إرادتهم واختيارهم ويأذن هو سبحانه للـخير أن يحدث ويـأذن للشر أن يحدث أو لا يأذن لهما بالحدوث فالأمر مفوض له وسيحاسبهم عليه يوم القيامة ولذلك يقول تعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ ٢٥٦ ــ البقرة .

﴿ ... أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ٩٩ ــ يونس .

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ ــ الكهف .

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ٤١ الزمر .

وإذا تأملنـا قولـه تعـالى ﴿ إنـا هدينـاه السبيـل إمـا شاكـراً وإمـا كفـــورا ﴾ ٣ الانسان ، لوجدنا أن الله عز وجل قد عرّف الإنسان طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر بأن بعث الرسل وأنزل الكتب وابتلاه فجعله سميعاً بصير ليستوعب ما كُلف به وليتفهم ما أنزل إليه من ربه وليتدبر آياته فيتضح أمامـه طريـق الخير من الشر وطريق الهدى من الضلال ثم تركه وشأنه يختار أيهما شاء مستخدماً ما منحه الله من حرية الإختيار وما خلقه فيه من الإرادة والقدرة على الاختيار فإما أن يكون شاكراً لنعمة الله فيسلك سبيل الخير والهدى والطاعة ، وإما أن يكون كافراً

بنعمة الله فيسلك سبيل الشر والضلال والعصيان .

فإذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما أقدم عليه من الأعمال بمحض إرادته واختياره يقول تعالى فى الحديث القدسى ﴿ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴾ رواه مسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام « كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها » رواه مسلم .

المبحث السادس
طبيعة النفس البشرية

وقد يعترض البعض قائلاً بأن الإنسان قد يفعل الشر بمحض إرادته والخير بمحض إرادته ولكن من الذى خلق للإنسان هذه النفس الشريرة التى قادته إلى فعل الشر بمحض إرادته ، ومن الذى خلق للإنسان هذه النفس الخيرة التى قادته إلى فعل الخير بمحض إرادته ؟

وإننى فى هذا المقام لا أجد أروع من الاستشهاد بهذه الآيات القرآنية فى الرد على هذا السؤال حيث يقول تعالى :

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ ٧ ـــ ١٠ : الشمس .

فالله لم يظلم أحداً ولم يحاب أحداً على حساب أحد وإنما كان عادلاً دائماً فى كل شىء إلى أقصى درجات العدل المطلق حيث أنه خلق لكل نفس جانبى الخير والشر معاً فكل نفس تلهم بالطريقين فى وقت واحد الفجور والتقوى ولها أن تختار ، ولو كانت هناك نفس خيرة تلهم بالتقوى فقط ونفس شريرة تلهم بالفجور فقط لقال تعالى فى الآية الكريمة فجورها أو تقواها بدلا من فجورها وتقواها .

ونفس هذا المعنى نجده فى قوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ١٠ ـــ البلد ، والنجدان هما طريقا الخير والشر ليختار صاحبها ما يراه .

إن نفس الطفل تحتوى على الخير والشر بالمناصفة ولكنها فى صورة كامنة وخامدة لا يشعر بها الطفل نفسه فالطفل لا يفهم معنى الخير ولا معنى الشر وبالتالى فهو لا يفعل خيراً ولا يفعل شراً ولذلك فهو برىء فبراءة الطفولة معناها أن الطفل برىء من الخير وبرىء من الشر .

ولكن سرعان ما يكبر الطفل ويغير أثناء نموه من هذا الميزان فيرفع من جانب الخير

على حساب جانب الشر إن كان خيّراً أو يرفع من جانب الشر على حساب جانب الخير إن كان شريراً حسب تمسكه أو عدم تمسكه بهدى الرسالات السماوية وحسب طاعته أو عصيانه لربه وحسب معاملته مع الناس والظروف والبيئة التى نشأ فيها فهو إما أن يرتقى بنفسه إلى الصفات الملائكية حيث الروحانية والشفافية وإما أن يهوى بنفسه إلى الصفات الحيوانية حيث الشهوة والرذيلة وبين هذين النوعين من الصفات درجات متفاوتة من الصلاح أو الفساد .

إذن فالله سبحانه وتعالى لم يظلم الإنسان لأنه أمده بقدرٍ متساوٍ من الخير والشر ولكن الإنسان هو الذى ظلم نفسه بعصيانه وابتعاده عن الطاعات والوصول بنفسه إلى الخسة والرذيلة . ومن الناس من يتعجب كيف يتساوى الأطفال قبل بلوغهم سن الإدراك فيما يمتلكونه من جانبى الخير والشر وهناك من هو مخرب كثير الحركة وآخر متزن قليل الحركة أينما وضعته فى مكان لا يتحرك منه ولا يعبث فى شىء ؟! .

والحقيقة أن عبث الطفولة ليس معناه حتما الشقاء والضلال كما أن الهدوء ليس معناه حتما الهداية فقد يصير الطفل العابث رجلاً هادىء الطبع عاقلاً متزناً متحلياً بصفات الإيمان والخلق الرفيع رقيق المشاعر والوجدان ، وقد يصير الطفل الهادىء رجلا ماجناً كثير العبث والفساد غليظ القلب لا دين ولا حياء له فالعبرة إذن بحسن النية وسلامة القلب وصفاء النفس أما ما يبدو على الأطفال قبل بلوغهم سن الإدراك من الهدوء أو الحركات المتعددة فإن ذلك مرجعه إلى اختلاف الطاقة الحرارية المسئولة عن حركة الجسم ونشاطه بين الأطفال وقد ورد أن الحسن والحسين رضى الله عنهما فى مرحلة طفولتهما كانا يلعبان بين يدى رسول الله ﷺ وهو يصلى .

المبحث السابع
تأثير البيئة على سلوك الإنسان

أما إذا كانت للبيئة التى نشأ فيها الإنسان والظروف المحيطة به تأثير عليه لا ذنب له فيه فإن الله تعالى بلاشك مطلع على حاله وعليم بكل شيء واجهه منذ صغره وألم به . فإذا علم الله قسوة ظروفه فإنه حتما سيحيطه برحمته التى وسعت كل شيء وسيغفر له ذنوبه وإن عظمت ما دام لا يشرك به شيئا مصداقا لقول الغفور الرّحيم فى محكم كتابه :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ٤٨ ــ النساء .

ومعنى « لمن يشاء » أى لمن يستحق هذا الغفران نتيجة قسوة ظروفه أو بسبب نقاوة وطهارة جوهره ومعدنه ، وهذا الصنف من الناس لن يظلم هو الآخر والأمر موكل إلى الله وليس لنا أن نتدخل فى مصائرهم فهو ربهم وهو أعلم بهم منا .

ومن أجل علم الله بقسوة الظروف المحيطة بكثير من الناس وفساد البيئة التى نشأوا فيها شرع الله التوبة وفتح بابها على مصراعيه فقال تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٥٣ ــ الزمر .

وحدد شروطاً للمغفرة فقال :

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ٨٢ ــ طه .

وحرصاً من الإسلام على حماية الإنسان من المؤثرات الخارجية والظروف المحيطة فقد أمره باختيار أصدقائه وجلسائه فقال رسول الله ﷺ :

« الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح ، وقال « لا تصاحب إلا مؤمنا » رواه أبو داود والترمذى بإسناد حسن .

وقال عليه الصلاة والسلام « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » متفق عليه .

وحتى لا يدّعي أحد بأن آباءه هم السبب فيما ارتكبه من ذنوب وآثام يعرض علينا الحق عز وجل هذه الحادثة الغريبة المثيرة حيث يقول تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك ءَاباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ ١٧٢ ـــ ١٧٤ : الأعراف .

إن الله تعالى يذكر لنا فى هذه الآيات واقعة غريبة يفهم منها أننا كنا فى حضرة الله قبل النزول إلى الأرحام « فى عالم المثال والملكوت » ربما كأرواح لا أحد يدرى . وأن الله أشهدنا على ربوبيته وأخذ منا ميثاقا بهذا الشهود حتى لا نعود فنكفر ونبرر كفرنا بأننا ضحية الآباء ومن أجل هذه الحادثة فإن كل مولود يولد على الفطرة أى يولد مسلماً ينبض قلبه بوحدانية الله .

علينا إذن فى موضوعنا الذى نحن بصدده أن نثق فى قوله تعالى :

﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

فمن أصدق من الله حديثاً ؟ تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً .

المبحث الثامن
لماذا الدنيا ؟

يقول البعض إذا كان الله قد أحاط بكل شيء علما وعلم تفاصيل حياتنا الدنيا ومصيرنا فى الآخرة من قبل أن يخلقنا وعلم من سيدخل الجنة ممن سيدخل النار فلماذا تركنا فى الدنيا حيث التعب والمشقة ؟

إن الله تعالى تركنا فى الدنيا نتفاعل معها حتى يقيم الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ما قدمت يدانا لكى لا يدعى أحد يوم الحساب بأنه قد ظلم وأنه لو كانت هناك حياة دنيوية لما فعل كل هذه الذنوب والمنكرات فإذا ما جمع الناس يوم الحشر يتناول كل إنسان كتابه وفيه الدليل المادى على ما قدمه فى الدنيا من خيرٍ أو شر يقول تعالى :

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ١٣ ، ١٤ ــ الإسراء .

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ ٤٩ ــ الكهف .

ليس هذا فحسب بل إنه يجعل جوارحهم تشهد عليهم فيما ارتكبوه من معاصى وآثام حدثت منهم بالفعل فى الدنيا حيث يقول تعالى :

﴿ حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيءٍ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ ٢٠ ، ٢١ ــ فصلت .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ٢٤ ــ

خلاصة القول :

إن الإنسان مخير فيما يحاسب عليه يوم القيامة من خير أو شر وما يأتى به من أعمال تجلب له الحسنات أو السيئات ويتحدد بها مصيره إن كان من أهل الجنة أو من أهل النار إذ لا يعقل أن يحاسبه الله على عمل أجبره على تنفيذه إجباراً .

المبحث التاسع
الإنسان مخير والكون مسيَّر فى عبادتهما لله

انظروا إلى قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ ١٨ ــ الحج .

فهو سبحانه أخبرنا أن الكون بأكمله يسجد له ويعبده ولكنه حينما ذكر الناس لم يتركها مطلقة ولكنه قال « وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب » .

ألا يدل ذلك على أن الكون بأكمله مسير أما الإنسان فهو مخير فيما يتعلق بالعبادة وغيرها من نواحى الخير والشر ! .

وفى تأكيد معنى إجبار الكون فى عبادته للخالق الأعظم يقول تعالى :

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ٤٤ ــ الإسراء .

الباب الثانى

المبحث الأول
ما جدوى العمل الصالح والدعاء مع المقدور ؟

يقول بعض الناس إذا كان العمل الصالح والدعاء لا يغيران من المقدور شيئا فما فائدتهما ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن علم الله الأزلى قد سبق قضاءه وقدره وخلقه للأشياء وذلك لأن علم الله صفة من صفات ذاته إشتق منها إسما من أسمائه وسمى نفسه العليم فكان علم الله قديماً بقدم الله ودائماً بدوامه وباقياً ببقائه أما القدر فهو أثر من آثار صفات الله ودليل نستدل به على وجود الخالق ولذلك كان القدر إحدى مخلوقاته . ولا يمكن للأثر أن يسبق الذات كما لا يمكن للمخلوق أن يسبق الخالق ولا للموجود أن يسبق الموجد . وتلك الحقيقة هى الركيزة الأولى والدعامة الأساسية التى تقوم عليها قضية الجبر والإختيار ونستند عليها فى إثبات عدالة الله ونفى الظلم على الإنسان فالله لا يقدر للناس أقدارهم إلا بعلم هو سابق لما قدره لهم وحينما قدر الله لآدم وذريته أن يكونوا خلفاء فى الأرض عجب الملائكة وسألوا ربهم عن الحكمة فيما قدره لآدم وذريته من الخلافة فى الأرض لعلمهم بما سيكون منهم من الفساد وسفك الدماء فأجابهم الله إجابة وافية مقنعة معجزة فى كلمات قلائل قال: (إنى أعلم ما لا تعلمون) أى أن علمى قد سبق قدرى فعلمت ما سيكون من آدم وذريته بالغيب قبل أن أقدر لهم الخلافة فى الأرض .

مما سبق يمكن القول أن الله عز وجل قد علم موقف عبده من العمل الصالح ومن الدعاء قبل أن يقدر له مصيره وقبل أن يخلقه فجاءت أقدار العباد وفقاً لأعمالهم وأدعيتهم فعلى قدر ما يتقربون به من الله تتحدد أقدارهم ومصائرهم .

علم الله قبل أن يقدر للخلق أقدارهم وقبل أن يخلقهم أن عالماً سينصح رجلين بالعمل الصالح والإقبال على الطاعات وترك المنكرات فأما أحدهما فيستحيب له ويعمل صالحا وأما الآخر فلن يستجيب له ولن يعمل صالحا ظناً منه أنه لن ينال أكثر من نصيبه وأن الله أراد له أن يكون بهذا الشقاء فلا جدوى مما يفعل فلن يغير

ذلك مما كتب له شيئاً ، علم الله ذلك بالغيب فقدر للأول الجنة وقدر للآخر النار فجاءت أقدارهما وفقاً لما يعلمه الله عن أعمالهما .

وبالمثل علم الله بالغيب قبل أن يخلق الخلائق ويقدر لهم أقدارهم ومصائرهم أن عبده سيدعوه دعوة مستجابة توفرت لها آدابها وشروطها فقدر له قدراً ومصيراً يتضمنان إستجابة الرب لدعاء العبد فما من عبد يدعو ربه دعوة مستجابة إلا كانت إجابتها ضمن ما قدره الله له فكأن الإنسان يستطيع أن يرسم لنفسه طريق السعادة أو الشقاء وفقاً لما يقوم به من الأعمال وما يتضرع به من الدعوات .

ولو لم يكن للعمل الصالح فائدة لما قال تعالى :

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ٤٦ ــ فصلت .

ولو لم يكن للدعاء فائدة لما قال تعالى :

﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ ٦٠ ــ غافر .

وقد ساق إلينا القرآن الكريم عديداً من الأدعية على ألسنة الرسل والأنبياء والصالحين تتضمن صلاح الدنيا والآخرة قد استجاب الله لهم جميعاً فجاءت الإجابة ضمن أقدارهم وأقدار من دعوا لهم أو عليهم .

المبحث الثانى

قال تعالى :

﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ٩٦ ــ الصافات

بعض المذاهب استمدت من هذه الآية الكريمة الحجة والدليل الساطع على أن الله عز وجل خلقنا وخلق أعمالنا .

وبرغم إيمانى بذلك إلا أننى أرى أن هذه الآية الكريمة لم يقصد بها ذلك المعنى وإنما قصد بها الإشارة إلى مخاطبة إبراهيم الخليل ﷺ لقومه بأن يعبدوا الله الذى خلقهم وخلق ما يعملون من الأصنام التى يتخذونها آلهة من دون الله فلا يحل لهم أن يتركوا الخالق ويعبدوا المخلوق الذى يشكلونه ويصنعونه بأيديهم ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة على لسان إبراهيم الخليل ﷺ فى سياق قوله تعالى :

﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ﴾ ٩٥ ، ٩٦ ــ الصافات .

وإذا لجأنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يفسر بعضه بعضا شارحاً نفس المعنى حيث يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ واتخذوا من دون الله ءالهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ ٣ ــ الفرقان .

أى أن الله عز وجل خلق تلك المواد التى تتكون منها أجساد الأصنام ثم تولى الكفار تشكيلها وتصنيعها بأيديهم ليجعلوا منها أصناما تعبد من دون الله .

نعود إلى ذلك الخلاف الحاد الذى نشأ بين مذهبى المعتزلة وأهل السنة حول الخالق الحقيقى للأعمال فقد اعتقدت المعتزلة بأن الإنسان هو الخالق لأعماله لأنه هو المسئول عنها واستدلت على ذلك بقوله تعالى :

﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ ٢ ــ التغابن .

وفسروا هذا الآية الكريمة بأن الله خلق الناس فمنهم من انحرف بعمله واختياره إلى الكفر ومنهم من اهتدى بعمله واختياره إلى الإيمان ولذلك فهم الخالقون لأعمالهم المسئولون عنها ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال تعالى ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ .
وقد بنى المعتزلة حجتهم أيضاً على قول النبى ﷺ :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه .

وقد اعترض أهل السنة على أفكار المعتزلة ونسبوا الخلق كله لله وحجتهم فى ذلك قوله تعالى :

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ ٦٢ ــ الزمر
وأيضاً قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ٩٦ ــ الصافات .

والمعتزلة قد جانبها الصواب لأنهم لم يستطيعوا التفرقة بين التخيير والخلق فالإنسان مخير فى أعماله ولكنه ليس خالقا لها والفرقَ واضح بين الخالق والمخير فالخالق للشىء هو القادر على الإتيان به وقتما شاء وكيفما شاء دون أن يعجزه شىء أو تعترضه الأسباب والمسببات والإنسان كما نعلم قد يأتى ليفعل خيراً أو شراً ولكن القدر قد يتدخل أحيانا ليمنعه من تنفيذ رغباته .

أما المخير فى أعماله فهو الذى إذا لم تمنعه الأقدار فعل ما اختاره بمحض إرادته وهذا هو شأن الإنسان ولذلك كان متصفاً بهذه الصفة .

وبالرغم من استقلال كل من مذهبى المعتزلة وأهل السنة بفكرته واعتقاده إلا أن حسن النية كان هو الهدف الذى يربط بينهما فالمعتزلة قد نسبت للإنسان خلق عمله لتنزه الذات الإلهية عن الظلم وتنفى عن الإنسان الجبر والإلزام وتجعله مسئولا عما قدمت يداه ، وأهل السنة قد نسبت الخلق لله تقديساً منها لله وتقديراً له حق قدره واعترافاً بنفوذه وسلطانه فى ملكه .

ويمكننا التقريب بين آراء المعتزلة وأهل السنة على ضوء التحليل الذى أوضحناه فى قضية الجبر والاختيار رغبة منا فى إبراز صفتين متلازمتين لله تعالى أولهما عدالة الله المطلقة مع الناس وثانيهما نسب الخلق والأمر لله وحده دون أحد من خلقه إعترافاً بشأنه وتقديساً لذاته .

ويمكننا تحقيق الإنسجام بين هاتين الصفتين وإبرازهما بإحدى تفسيرين :

أولهما : إن العبد إذا عقد العزم على الإتيان بالأعمال الصالحة أو الشريرة بكامل حريته واختياره ويسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا فى ملكه كان هذا التيسير والإذن من الله إيذاناً بأن تخلق الأعمال فى ذلك الوقت بعينه وهو وقت إقبال العبد على الإتيان بتلك الأعمال فكأن تيسير الله وإذنه هو بمثابة النداء الإلهى الآمر العلوى « كن فيكون » كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ٨٢ — يس .

وبذلك تكون الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد .

وثانيهما : إن الله عز وجل قد علم ما سيختاره العبد من الأعمال قبل أن يخلقه فقدر له أعماله وخلقها له حتى إذا جاء وقت التنفيذ كانت تلك الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد .

وبذلك أمكننا بفضل الله عن طريق أي من هذين التفسيرين إبراز صفتين من أهم صفات الذات الإلهية أولهما عدالة الله المطلقة مع الناس وثانيهما نسب الخلق والأمر لله وحده إعترافاً منا بحق الله وإرضاء لقلوبنا وقلوب المؤمنين ورغبة فى عدم الوقوع فى الإثم والمحظور .

المبحث الثالث

قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء

ذكرنا أن العبد يختار ما يشاء من الخير أو الشر بمحض إرادته ثم تتدخل مشيئة الله لتأذن لهذا الخير أو الشر أن يحدث أو لا تأذن له بالحدوث .

يجب أن نعلم تمام العلم واليقين أن فضل الله على عبده المؤمن لا يقتصر على السماح له بإحداث الخير فى ملكه وتوفيقه فى مساعيه الصالحة بل يتعداه إلى ما هو أكثر وأهم من ذلك .

إن نور الهدى والإيمان الذى يضىء قلوب الصالحين فتنشرح به صدورهم وتخشع به قلوبهم وجوارحهم إنما هو من فعل الله وحده وبفضله وحده فليس لمخلوق القدرة على التحكم فى قلوب العباد حتى الإنسان نفسه لا يستطيع التحكم ولا المحافظة على ما فى قلبه من مشاعر الإيمان ، فقلوب العباد جميعهم بين يدى خالقهم ومن أجل ذلك سميت قلوباً لأنها كثيرة التقلب ولا يملك تثبيتها إلا الله وحده ومصداق ذلك من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ ٢٤ ـــ الأنفال .

قال رسول الله ﷺ « إن قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » رواه الامام مسلم ، مع التسليم بقوله تعالى « ليس كمثله شىء » وأن ذلك من تمام قدرته سبحانه وتعالى .

وأيضاً دعاء النبى ﷺ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) رواه الترمذى وقال حديث حسن ، كما كان يكثر من قوله « سبحان مقلب القلوب » ، وقد بين الله لنا فى قرآنه أن الفضل له وحده فى إنارة القلوب بنور الإيمان فقال تعالى :

﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ ٧ ، ٨ الحجرات .

فالله هو الذى حبب إليهم الإيمان وهو الذى زينه فى قلوبهم وهو الذى كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وهو صاحب هذا الفضل وهذه النعمة .

إن هذا الشعور الفياض بالإيمان الذى تمتلىء به قلوب الصالحين هو من صنع الله أما التعبير المادى عن هذا الشعور المتمثل فى العمل الصالح فهو من صنع العبد واختياره المطلق دون جبر من الله أو قهر .

المبحث الرابع
الله مقلب القلوب وعدالته للإنسانية

إن الله عز وجل قد حدد الأسباب التى من أجلها يوجه قلوب العباد ناحية الهدى أو الضلال حتى لا يظلم أحداً من خلقه فإذا وجد الله من عبده ميلاً إلى الهدى وأخذاً بأسبابه طبع قلبه على الإيمان أما إذا وجد من عبده ميلاً إلى الضلال طبع قلبه على الكفر والنفاق .

وهذا الميل إلى الهدى أو الضلال لا يقصد به الأعمال وحدها بل النوايا أيضاً ولذلك قال ﷺ : « طوبى لمن طابت سريرته واستقامت علانيته » ، وإذا كان الله عز وجل قد امتلك قلوب العباد ووضعها تحت تصرفه فإنه قد ترك لعباده مسئولية أفعالهم ونواياهم كاملة وهى ما يبدون وما يكتمون وما يخفون وما يعلنون فقال تعالى :

﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ ٤ ــ التغابن .

من هذا يتضح أن الأفعال والنوايا من اختصاص العبد أما القلوب فهى من اختصاص الرب . وبرغم أن قلوب العباد هى من اختصاص الله وتصرفه وحده إلا أنه سبحانه يأمرنا ويطالبنا بسلامة القلوب فقال فى كتابه العزيز :

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ٨٨ ، ٨٩ ــ الشعراء .

والسر فى ذلك أن معالجة القلوب التى هى من اختصاص الله هى النتيجة الحتمية المترتبة على أفعال العباد ونواياهم فكأن العبد يمكنه أن يكون سليم القلب إذا استقامت نفسه وصلح عمله والله جل شأنه يهب سلامة القلب لكل من استقامت سريرته وعلانيته دون محاباه لبعض خلقه على حساب البعض الآخر فإذا طهر الإنسان نفسه من الحقد والحسد والبغضاء والضغينة والأنانية والنفاق والرياء والشح والكبر وتجنب المعاصى وأقبل على الطاعات ولم يتكالب على حطام الدنيا ومفاتنها أمكنه بعون الله أن يكون سليم القلب .

ومعالجة الله لقلوب العباد ليست عشوائية ولكنها تسير وفقاً لسلوك الإنسان والدلائل القرآنية تشير إلى تلك المعانى حيث يقول تعالى :

﴿ ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه ﴾ ١١ ــ التغابن .

فهداية الله لقلب عبده يتوقف على إيمانه بربه فى السر والعلانية ، ويقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ ٢٤ ــ الأنفال .

أى أن الأمر يتوقف على مدى استجابة العبد لله وللرسول .

والصلة بين معالجة الله لقلوب العباد وسلوكهم تتضح أيضاً فى أهل الضلال حيث يقول تعالى :

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ٥ ــ الصف .

ويشير موسى نبى الله إلى آل فرعون الذين كانوا يعملون السيئات داعياً ربه :

﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ٨٨ ــ يونس .

والله جلّ شأنه لا يقذف فى قلب عبده الهدى والضلال فحسب بل يقذف فى قلبه الطمأنينة والرعب أيضا وفقاً لأعمالهم وسلوكهم يقول تعالى :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ٤ ــ الفتح .

ويقول تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ٢٨ ــ الرعد .

أما عن أهل الضلال فيقول تعالى : ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ١٢ ــ الأنفال .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ﴾ ١٥ ــ آل عمران . .

ومن هذا يتبين مدى الوفاق بين معالجة الله للقلوب وسلوك العباد فالسكينة لم تكن إلا للمؤمنين ، والطمأنينة لم تكن إلا للذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والرعب لم يكن إلا للكافرين .

وإذا كان الله تعالى يقول فى محكم كتابه ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ٥٣ ــ النحل ، فيجب أن نعلم أن الإيمان الذى يضىء قلوب الصالحين هو من النعم التى ذكرتها الآية الكريمة بل هو أهم وأعظم هذه النعم وهو من الله وحده وبفضله وحده ولذلك وجب علينا أن نشكر الله على نعمة الإيمان الذى قذفه فى قلوبنا وأن نسأله أن يثبت قلوبنا على الهدى والإيمان .

وإن شكرنا لله على نعمائه ليحتاج منا إلى شكر آخر لأنه ألهمنا الشكر وأعاننا عليه وجعلنا من عباده الشاكرين .

المبحث الخامس
مقومات الهداية

يقول تعالى :

﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ٤٣ ــ الأعراف .

معنى الآية الكريمة هو « الحمد لله الذى هدانا لهذا الخير والعمل الصالح الذى أدى إلى دخولنا الجنة وما كنا لنهتدى لمصادر الخير والعمل الصالح لولا أن هدانا الله إلى مصادرهما بما أنزله على رسله من الحق متمثلا فى الشرائع والرسالات السماوية فكان هذا العمل الصالح والتسابق فى فعل الخيرات كما أمر الله هو الدليل على طاعتنا لربنا وولائنا له فنجانا الله من الأهوال وأدخلنا الجنة » .

وإذا تدبرنا معنى تلك الآية الكريمة وجب علينا تفسيرها على مرحلتين :

أولا : الحمد لله الذى هدانا لهذا :

إن الله عز وجل قد أمد الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم بالمقومات التى تحقق لهم الهداية إذا أحسنوا الاستفادة منها فقد أمدهم بالعقول لعلهم يعقلون ، وبالأسماع لعلهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وبالأبصار لعلهم يتأملون فى ملكوت السموات والأرض فيرون من خلالها قدرة الله وعظمته ووحدانيته ويرون الحق حقاً فيتبعوه والباطل باطلاً فيجتنبوه ويرون حكمة الله فى خلقه وعاقبة الذين من قبلهم فيعتبرون ويتعظون ، وأمدهم بالأفئدة لعلها تكون أوعية للتقوى والمحبة والخير ، وبالألسنة لعلهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الحق ويذكرون الله كثيرا ، وأمدهم بالضمائر لعلهم يرجعون إلى ربهم نادمين على ما اقترفوه من المعاصى والآثام ، وبالجوارح لعلها تمتد إلى الخير ، ووهبهم مقومات الحياة حتى يتمكنوا عبر تلك الحياة من مواصلة رسالتهم نحو الخير والتعمير ، ودعاهم فى نظير تلك النعم

جميعها إلى شيء واحد قامت عليه حكمة الوجود وسر الخلق هو عبادته سبحانه فقال جل شأنه :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ٥٦ ـــ ٥٨ الذاريات .

ولكن أكثر الناس أبوا إلا أن يبارزوا الله بتلك النعم التى وهبهم إياها فارتكبوا المعاصى والآثام واستخدموها فى غير ما خلقت من أجله فأصبحت هذه النعم مقومات للضلال بدلاً من أن تكون مقومات للهداية .

ومن مقومات الهداية أيضاً الكتب والشرائع السماوية التى أنزلها الله للناس جميعا تميز لهم بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين ما يوجب رضا الله وثوابه وما يوجب سخطه وعذابه وتدعوهم إلى الخير كل الخير وتحببهم إليه وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتكفل لهم الخير والسعادة والهدى والصلاح إذا امتثلوا لأوامر الله واجتنبوا نواهيه .

ثانيا : وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله :

صدق الله العظيم فيما قال فمن المؤكد أن الإنسان لو ترك لهوى نفسه لضل وإذا اعتصم بالعرف والعادات والتقاليد بما لا يتمشى مع روح الإسلام لضاع أمله فى الهداية ، وإذا التجأ إلى آراء الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس والإجتماع يلتمس عندهم الهداية لضل ضلالا مبينا ، ألم يقل الله تعالى :

﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ ١١٦ ـــ الأنعام .

وكم من القوانين الوضعية والنظريات الفلسفية أثبتت فشلاً زريعاً فى صلاحيتها لهداية البشرية والنهوض بالمجتمعات وحل مشاكله .

ولذلك كانت الأديان السماوية هى المصدر الوحيد للهداية وفى مقدمتها الإسلام وقرآنه العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من الله العزيز الحكيم . وتأكيداً لتلك الحقيقة فقد حذر الله نبيه من اتباع أهواء الناس فقال تعالى :

﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ ١٢٠ ـــ البقرة .

وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا من بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » .

وصدقت كلمات الله فما كنا لنهتدى لولا كتاب الله وكلماته التى أوحى بها على رسله وأنبيائه . وهذا هو ما يفسر لنا قوله تعالى فى حديثه القدسى « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » رواه مسلم ، والمؤمن الضال هو الذى لم ينبأ بتعليمات الله وأحكامه وإرشاداته فتخفى عليه أمور يجهلها فيها صلاح الدنيا والآخرة ، إذا سار على منهجها هدى إلى طريق الله المستقيم وقويت صلته بربه وهذا هو معنى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ « ووجدك ضالاً فهدى » .

ومن المؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يدخل الهداية فى قلبه حتى ولو اعتصم بالأديان إلا أن يشاء الله مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٦ ـــ ٢٩ : التكوير .

وذلك لأن قلوب العباد بين يدى الله عز وجل فإذا علم الله فى عبده ميلاً إلى الهدى وأخذاً بأسبابه واستقامة على طريقه واستناداً إلى كتبه وشرائعه ومنهاجه وعلم فيه صدق النية والإخلاص فى العمل أخذ الله بيده إلى بر الأمان وأعانه على الهداية وأنار بصيرته وقذف الهدى والتقوى والإيمان فى قلبه فأصبح من المهتدين .

هذا فيما يتعلق بمعنى قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ . وليست الهداية مقصورة على العمل الصالح وحده بل على جوانب الخير جميعها فالعلماء الذين يتوصلون إلى إختراعات علمية مذهلة وجب عليهم بسبب توفيق الله وإعانته لهم وتسخيره للأسباب والمسببات وتذليله للصعاب التى تعترض طريقهم أن يقولوا بملء أفواههم وصدق إيمانهم « الحمد لله الذى هدانا لما توصلنا إليه من العلم وما كنا لنهتدى إلى تصميم تلك المخترعات لولا أن هدانا الله إليها » .

المبحث السادس
أهل الجنة يكرمون
وأهل النار لا يكرمون ولا يظلمون

بعض الناس يشفقون على العصاة والمذنبين ، ويعتقدون أنهم ينالون من عذاب الله يوم القيامة فوق ما يستحقون بسبب ظلمهم وسوء أعمالهم .

وللرد على تلك المزاعم ، نقول بأن الهدف الأول من الأوامر والنواهى التى امتلأت بها الأديان السماوية لم يكن اسعاد البشرية واصلاح شئون حياتهم الدنيا والمحافظة على صحتهم مما تسببه لهم تلك المنكرات التى نهى الله عنها فهذه الأمور جميعها تأتى فى المرتبة الثانية ، وإنما كان الهدف الأول والغاية العظمى التى من أجلها جاءت تلك الأوامر والنواهى هى طاعة الله والولاء له ، حباً فى طاعته وتصديقا لما جاء من عنده وإيماناً بحقه فى أن يأمر وينهى فيطاع دون معارضة أو شك أو اتباع للأهواء ، ولذلك قال تعالى موضحاً تلك المعانى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ ٣٦ ـــ الأحزاب .

وقد وصف الله من لم يحكم بما أنزل بالكفر والفسوق والظلم فى آيات ثلاثة من القرآن الكريم ولله على الناس حق الطاعة والولاء فالالوهيـــة هى أسمى المراتب على الإطلاق والإله بما له من هذه المنزلة الرفيعة وما له من الفضل العظيم والنعم البالغة على مخلوقاته من حقه أن يطاع فلا يعصى فمن اجترء على معصيته فقد اقترف جرماً عظيماً يوجب العقاب والهلاك وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ ٦١ ـــ النحل .

إن رحمة الله قد سبقت غضبه فلم يستخدم حقه فى إهلاك كل من عصاه وإنما كان غفوراً رحيما .

ومنحة الغفران قد وهبها الله لعباده التائبين قبل أن يدركهم الموت فمن أصر على المعصية ولم يقدم التوبة ومات مصراً على معصيته حرم المغفرة فكان حقاً على الله أن يعذبه يوم القيامة .

وعلى قدر المعصية وعلى قدر منزلة من ترتكب فى حقه المعصية يكون العقاب فإذا بلغت المعصية ذروتها ووصلت إلى الكفر بالله الذى لا إله سواه كتب لمقترفها الخلود فى النار لينال أشد العذاب . والكافر يوم القيامة عدو لله لا يكرمه الله ولا يتفضل عليه فلا يحاسبه على أفعاله وخطاياه فحسب بل يحاسبه أيضا على كل النعم التى وهبها له فى دنياه وكفر بها وجحدها إذ لا يحق للكافر أن يتفضل الله عليه بشىء فالخلق والصحة والمال والمأكل والمشرب والزوجة والذرية وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا جميعها نعم يحاسبه الله عليها وتضاف إلى ميزان سيئاته ولذلك يقول تعالى :

﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ ٨ ـــ التكاثر .

وإذا تدبرنا قوله تعالى :

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ ٣٤ ـــ إبراهيم .

لعلمنا أن نعم الله على عبده الكافر التى يصعب بل يتعذر حصرها ستصل حتما إلى اللانهائية .

وطالما أنها نعم لا نهائية بلا حدود فالعقاب عليها أيضاً بلا حدود فإذا حاسبه الله عليها كان مصيره الذى لا ريب فيه هو الخلود فى النار .

فالإجتراء على معصية الإله الخالق والكفر به وعدم إمكانية حصر نعمه على عبده تؤدى لا محاله إلى الخلود فى النار وهذا هو ما يستحقه الكافر بالضبط دون إكرام أو ظلم من الله ولذلك يقول تعالى عن عذاب أهل النار ﴿ جزاءً وفاقاً ﴾ ٢٦ ـــ النبأ ، أى جزاءً لهم وفق أعمالهم تماماً ، ومن هذا يتبين أن الله عز وجل يعامل الكفار بمنطق العدل وليس بمنطق الرحمة فالرحمة جعلت للمؤمنين الأتقياء وحدهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ ١٥٦ ـــ الأعراف .

ويحضرنى هنا قوله تعالى فى حديثه القدسى :

« إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر غيرى ، خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىَّ صاعد ، أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم ، ويتباغضون إلىَّ بالمعاصى وهم الفقراء إلىَّ » .

إذا نظرنا إلى أهل الجنة لوجدنا أنهم مكرمون وينالون أكثر مما يستحقون بأعمالهم ، والكريم هو الذى يعطى أكثر مما يأخذ أما أكرم الأكرمين وهو الله عز وجل فهو الذى يعطى بلا حدود دون أن يأخذ شيئاً لأنه هو الغنى الحميد .

ومن مظاهر تكريم الله للمؤمنين من عباده تجاوزه عن النعم التى وهبها لهم فى دنياهم بما فيها نعمة الخلق والوجود فلم يحاسبهم عليها لأنهم نسبوها إلى الله ولم يكفروا بها فجعلها الله لهم حقاً مكتسباً بخلاف الكافرين ولذلك قال تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين ءامنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ ٣٢ ــ الأعراف .

وأهل الجنة لا يدخلونها بأعمالهم ولكنهم يدخلونها برحمة الله ويعد هذا مظهراً آخر من مظاهر اختصهم به أكرام الأكرمين الذى يعطى بلا حدود دون أن يأخذ شيئاً فمن قدم صالحاً فلنفسه والله غنى حميد فإذا قيل بأن متاع الجنة ونعيمها مطابق تماماً لأعمال أهل الجنة لضاع معنى التكريم والتفضل الإلهى ، ولذلك فقد ورد أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « لن يُدخل أحداً عمله الجنة ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته » متفق عليه .

ولعل هذا الحديث النبوى يتفق تماماً مع دعاء سليمان عليه السلام فى قوله تعالى :

﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ١٩ ــ النمل .

ونحن نعلم أن من أهل الجنة من امتلأت حياته الدنيا بالشرور والآثام وخلت تقريباً من الأعمال الصالحات ولكنه ختم حياته بالتوبة النصوحة التى توفرت فيها مشاعر الندم والصدق والإخلاص فقبل الله توبته وغفر له ما سلف وأدخله الجنة فهل استحق الجنة بعمله أم استحقها برحمة الله وفضله ورضوانه ؟ .

وإذا عمرت حياة العبد بالأعمال الصالحة وقورنت بنعم الله عليه التى لا تحصى ولا تعد منذ أن خلقه إلى أن أماته فهل يتبقى له بعد ذلك من الأعمال الصالحات ما يسمح له بدخول الجنة عن استحقاق ؟ .

وإذا علمنا أن الفوز معناه الحصول على أكثر من المستحق ، وإذا علمنا أيضا أن تجارة العبد مع ربه هى تجارة رابحة لصالح العبد لأمكننا الاستدلال بهذه الآيات القرآنية لإثبات تفوق نعيم الجنة على أعمال العباد حيث يقول تعالى :

﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ ٣١ ـــ النبأ .

ويقول سبحانه :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ ١٨٥ ـــ آل عمران .

ويقول تعالى مشيراً إلى أن نعيم الجنة يفوق أعلى درجات العمل الصالح وهو الجهاد بالنفس والمال :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ١١١ ـــ التوبة .

ولذلك كانت تجارة المؤمنين مع الله تجارة رابحة تستحق البشرى .

وربما يتساءل بعض الناس إذا كان أهل الجنة يدخلون الجنة برحمة الله وفضله فما فائدة أعمالهم الصالحة ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن الأعمال الصالحة لأهل الجنة بما فيها التوبة قد جعلها الله مؤشراً ودليلاً على طاعتهم لربهم وولائهم له وإيمانهم به وهذا هو لب الأديان والله لا يريد من عباده أكثر من هذا فالأعمال الصالحة هى جواز المرور أو تذكرة الدخول التى تبيح للعباد أن يجتازوا أهوال يوم القيامة وأن يمروا سالمين فوق الصراط المنصوب على ظهر جهنم وأن يدخلوا الجنة فإذا دخلوها كانوا فى رحمة الله وفضله فأعطاهم الله بلا حدود عطاء يفوق أعمالهم ولكنه يتفاوت فيما بينهم تبعاً لأعمالهم فأفضلهم عطاء منزلة النبيين ثم الصديقين ثم الشهداء ثم الصالحين ثم المحسنين من

المؤمنين ثم عامة المسلمين وجميعهم أعد الله لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الباب الثالث

الفصل الأول
القدر الاختيارى والقدر الإجبارى

القدر الاختيارى هو ذلك النوع من القدر الذى تتدخل فيه مشيئة الإنسان جنبا إلى جنب مع مشيئة الله وهو عبارة عن علم ومشيئة .. علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد ويبرز إلى حيز الوجود .

وكل ما تناولناه بالذكر فى الصفحات السابقة إنما هو قدر اختيارى وكلمة اختيارى لا يقصد بها وصف القدر من حيث حدوثه أو عدم حدوثه فالقدر لابد واقع لا محالة وإنما يقصد به إحتواء هذا القدر على اختيار العبد جنباً إلى جنب مع مشيئة الله تمييزاً له عن القدر الإجبارى الذى لا دخل لاختيار العبد فيه ، وكلا النوعين من القدر الإجبارى والاختيارى لابد لهما من الحدوث لا محالة .

وإلى الذين لا يريدون لهذا النوع من القدر أن تتدخل فيه مشيئة الله جنباً إلى جنب مع اختيار العبد نقول لهم بأن هذه المشيئة الإلهية هى أمر حتمى لأن الله الذى خلق الزمان قد طواه طوع إرادته فتساوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل وعلم ما كان وما يكون وما سيكون من عبده وعنصر المفاجأة لا يجوز لذات الله فمن المحال أن يفاجىء العبد ربه بما لا يعلمه لأنه لا يأتى بجديد بل الكل قديم فى علم الله ، وكما أن المشيئة أمر حتمى فهى أيضاً أمر ضرورى للمحافظة على توازن نظام الكون وتوازن أحداثه وأحداث العباد فلو ترك الأمر لاختيار العباد فقط لاختل النظام وتعارضت المصالح وتضاربت الأحداث وما أمكن ربط أحداث الكون بعضها ببعض لأن فى اختيار العبد الواحد قد تتحدد مصائر أناس آخرين .

وهذه المشيئة الإلهية القادرة على التحكم فى الأحداث والسيطرة على الكو بأكمله هى منتهى القدرة والحكمة والشمول والإحاطة .

وإذا كان القدر الاختيارى هو عبارة عن اختيار من العبد قد تمت الموافقة عليه من الله عز وجل فبرز إلى حيز الوجود فإن هناك نوعاً آخر من القدر لا دخل للإنسان فيه ولا اختيار له بجانب المشيئة الإلهية ذلك هو القدر الإجبارى ومنه ما يختص بذاتية الإنسان كالأعمار والأرزاق والميلاد والوفاة والصحة والمرض وطبيعة الجسم حجماً ولوناً ومنظراً وطبيعة النسل عدداً ونوعاً ، ومنه ما يختص بذاتية الكون كنزول المطر وشروق الشمس شرقا وغروبها غرباً وتعاقب الليل مع النهار والصيف مع الشتاء والشمس مع القمر وطبيعة الأرض وما تحدث لها من هزات وزلازل وبراكين .

وكما أسلفنا الذكر فإن كلا النوعين من القدر الإختيارى والإجبارى حتمى الحدوث لا محالة مصدقاً لقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ٤٩ ـــ القمر ، ﴿ إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ ٣ ـــ الطلاق ، ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ ٢ ـــ الفرقان ، ومصداقا لقول النبى ﷺ « لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » رواه أحمد الترمذى وقال حسن صحيح ، فيفهم من ذلك أنه لاشيء يسبق القدر .

ومصداقاً أيضاً لقوله النبى ﷺ « جف القلم بما أنت لاق » رواه البخارى ، وقوله « كل شي بقدر حتى العجز والكيس » رواه مسلم ، وقوله « رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

ويمكننا وضع تعريف جديد لكل من القدرين فالقدر الإجبارى هو ما أصابك من حيث لا تدرى دون إرادة منك أو تعمد سواء أكان شراً أم خيراً .

أما القدر الإختيارى فهو ما حدث بقصد منك وتعمد سواء أكان خيراً أم شراً .

فإذا أردت أن تضرب غلاماً ولكنه قتل خطأً فذلك قدر إجبارى ، أما إذا أردت قتله فقتلته فذلك قدر اختيارى ، وإذا أعطيت مريضاً الدواء خطأً بقصد الشفاء فمات كان ذلك قدراً إجبارياً ، أما إذا علمت تأثير الدواء على حياته فقتلته به عمداً كان ذلك قدراً إختيارياً .

ومن نماذج الأقدار الإجبارية النسيان والإكراه لقوله ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » رواه الطبرانى بسند صحيح .

ولقد أشار الله عز وجل إلى كثير من الأقدار الإجبارية نذكر منها قوله تعالى :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ ٧٨ ـــ النساء .

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلا ﴾ ١٤٥ ـــ آل عمران .

﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ ٨ ـــ الجمعة .

﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ ١٥٤ ـــ آل عمران .

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ٦١ ـــ النحل .

﴿ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ﴾ ١١ ـــ التغابن .

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ ٢٣ ـــ الحديد

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ٥١ ـــ التوبة .

﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ١٥٦ ـــ البقرة .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ ١٠٧ ـــ يونس .

كما أشار النبى ﷺ إلى كثير من الأقدار الإجبارية نذكر منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك » أخرجه أحمد بسند صحيح .

« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

« وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » رواه مسلم .

« لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه » متفق عليه .

ومن روائع قدرة الله وحكمته البالغة حدوث نماذج متعددة لصور الإنسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الأثنين ، وبحيث يتعانقان ويتلاقيان معاً فى النهاية فى خط واحد ومفهوم واحد . وهذا الإنسجام أمر لابد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس .

وهناك نوعان من الإنسجام بين النوعين من القدر ، نوع يحدث بين شخصين أو أكثر ، ونوع يحدث لشخص واحد فقط .

والأمثلة على النوع الأول كثيرة ومتعددة ، فإذا تآمرت جماعة على قتل إنسان ما فقتلوه فقد أصابهم قدر اختيارى يحاسبهم الله عليه وأصاب القتيل قدر إجبارى ، لأن الموت والأعمار ضمن الأقدار الإجبارية التى تصيب الإنسان ولا دخل له فيها .

وإذا قتل إنسان جماعة من الناس فقد أصابه قدر اختيارى ، وأصابهم قدر إجبارى .

وإذا قتل إنسان إنساناً آخر فقد أصاب القاتل قدر إختيارى وأصاب المقتول قدر إجبارى .

وما ينطبق على القتل ينطبق أيضاً على غيره من جوانب الشر .

وبالمثل إذا ترك غنى وصية أو جزءاً من ماله لرجل فقير ، فقد أصاب الأول قدر إختيارى وأصاب الثانى قدر إجبارى ، لأن الرزق ضمن الأقدار الإجبارية .

وما ينطبق على الصدقات ينطبق على غيرها من جوانب الخير .

ومصداقا لهذا الانسجام بين القدرين ، يقول ﷺ : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

فإقبال الأمة على منفعتك أو إضرارك قدر اختيارى ، أما ما يصيبك منهم من منفعة أو إضرار فهو قدر إجبارى لا بد أن يصيبك رضيت أم أبيت .

أما الأمثلة على النوع الثانى من الإنسجام بين القدرين ، والذى يحدث لشخص واحد فقط فهو كأن يقتل إنسان نفسه عمداً فيكون قاتلاً ومقتولاً فى نفس الوقت ويصاب بالنوعين من القدر قدر اختيارى لأنه ارتكب هذه الجريمة الشنعاء ، وقدر إجبارى لأنه ذاق الموت والموت ضمن الأقدار الإجبارية .

ومن الملاحظ أن الأفعال الإختيارية متخللة بين الأفعال الجبرية وتقدير الله السابق لما سيفعله البشر مختارين ، فالعبد يسأله ربه عن فعله الإختيارى ونفس هذا الفعل الإختيارى قد يؤثر بمشيئة الله على عبد آخر يبتلى به فيكون بالنسبه له قدر إجبارى لا يملك دفعه ولذلك لا يسأله عنه ربه .

من هنا يتبين لنا بأن الأقدار الإختيارية هى وحدها التى يحاسب عليها الإنسان وتؤثر فى ميزان حسناته وسيئاته يوم القيامة ، أما الأقدار الإجبارية فلا يُسأل عنها العبد.

وليس حتماً بأن يحدث الإنسجام بين الأقدار الإختيارية والإجبارية ولا أن تولد المسببات بمجرد الإتيان بالأسباب ، فمشيئة الله لا تخضع لقانون ثابت ، فقد يأتى الله عز وجل بأقدار إجبارية لا تنسجم إطلاقاً مع الأقدار الإختيارية لكى يبرهن على أن المسببات من صنع يده وليست وليدة الأسباب — كما يتوهم البعض — ولنضرب مثلاً على ذلك ما حدث لنبى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما أراد قومه أن يجمعوا الحطب ويشعلوا النيران ، فمكنهم الله من ذلك ، ثم أرادوا أن يلقوا إبراهيم عليه السلام وسط هذه النيران المشتعلة ، فمكنهم الله من ذلك ، وتمت بذلك الأقدار الإختيارية التى سعوا إليها باختيارهم وإرادتهم الحرة .

وجاء القدر الإجبارى لينسجم مع الأقدار الاختيارية معلناً هلاك إبراهيم الخليل محترقاً وفقاً لسنن الطبيعة المألوفة ، ولكن الله عز وجل لم يأذن لهذا الإنسجام أن يحدث ، ولم يرض لنبيه ذلك المصير المروع ، فقضى لنبيه قدراً إجبارياً من نوع آخر ، ألا وهو النجاة من النار وأبطل قدراً إجبارياً هو من أخص خصائص النار ألا وهو قدرتها على الإحتراق ، يقول تعالى :

﴿ قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ ٦٨ ـــ ٧٠ : الأنبياء .

وهم بذلك قد أتوا بالأسباب ، ولكن المسببات تخلفت بقدرة الله ومشيئته ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والقدر يستمد قوته من مشيئة الله فكما أن مشيئة الله نافذة فإن قدر الله أيضا نافذ لامرد له مصداقاً لقول النبى ﷺ « قدر الله وما شاء فعل » .

ولقد التبس على بعض الناس فهم بعض الأحاديث النبوية فظنوا أن قدر الله قد يرده شيء من دعاء أو بر أو صلة رحم بينما هذه الأمور التى يأتيها العباد تدخل ضمن أقدارهم وقد كتب الله لهم ولغيرهم أقدارهم وفق ما يعلمه من دعائهم وبرهم وصلتهم لأرحامهم قبل أن يخلقهم ، وإلى هؤلاء نسوق إليهم قول النبى ﷺ « لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح ، ففهم من ذلك أنه لا شيء يسبق القدر ، فضلاً عما سبق سرده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على حتمية القدر .

إن العذاب أو البلاء يوشك أن ينزل على العباد فيلقاه الدعاء المستجاب فيكشف الله عنهم العذاب قبل أن يمسهم فلا يكون قدراً لهم وذلك كما حدث مع قوم يونس لما آمنوا بربهم وابتهلوا إليه بالدعاء كشف عنهم العذاب قبل أن يقع عليهم وبذلك لم يكن هذا العذاب ضمن الأقدار التى كتبت عليهم . والعبد قد يمسه الضر فيدعو ربه فيكشف ما به من ضر كما حدث لنبى الله أيوب عليه السلام فمثل هذا العبد أصابه الضر بقدر الله إلى وقت معلوم ثم لما دعا ربه كشف عنه الضر بقدر آخر وفق ما علمه الله من دعائه قبل أن يخلقه ويقدر له المقادير ، فلا القدر الأول منع ولا القدر الثانى منع بل كلاهما حتمى الحدوث فى علم الله .

وبذلك يتبين لنا معنى قول النبى ﷺ « لا يرد القدر إلا الدعاء » ، وقوله ﷺ « لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » .

فالقدر هو ما نزل وليس ما لم ينزل ، ينزله الله على عبده إلى وقت معلوم ثم يرفعه عنه بقدر آخر .

الفصل الثانى
معصية آدم عليه السلام
(على ضوء قضية الجبر والاختيار)

قال تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ١١٥ ـــ ١٢٢ طه .

وآدم عليه السلام كان طبيعياً أن يجمع بين الطاعة والعصيان لأنه أب للبشر جميعاً طائعهم وعاصيهم ، فحينما أكل من الشجرة كان عاصياً لربه ونموذجاً لمعصية ذريته من بعده ، ولكنه حينما هبط إلى الأرض كان هادياً معصوماً ونموذجاً للطائعين التائبين العابدين من ذريته .

وإذا أمعنا النظر فى قصة آدم عليه السلام واستخلصنا منها العبرة والعظة بعد تحليلنا للآيات القرآنية التى تحدثت عن هذه القصة لعلمنا أن آدم عليه السلام كان مقدراً له قبل أن يخلقه الله أن يكون خليفة فى الأرض يورثها لذريته من بعده ليعمروها وليتفاقم الصراع بين الحق والباطل ، فمنهم المصلح ومنهم المفسد ومنهم الأبرار ومنهم الفجار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ٣٠ ـــ البقرة .

وأراد الله لآدم وذريته من بعده أن يسكنوا الأرض ، وكان هذا قدرهم لاحيلة لهم فى دفع قدرهم الذى قدره الله لهم ، ولذلك شاءت حكمة الله أن يخلق آدم من تراب

الأرض كما جاء فى قوله تعالى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ٥٥ ــ طه .

وقوله تعالى ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ٢٥ ــ الأعراف .

ولكن الله تبارك وتعالى لم يهبط آدم عليه السلام إلى الأرض ولم يسكنه فيها إلا بعد أن جعله يخوض تجربة يتعرف عن طريقها على حقيقة ذاته ويستخلص منها دروساً مستفادة تعينه على مواجهة أعباء الحياة فى الأرض بما فيها من متاعب وآلام ، فقد أسكنه الله الجنة وأمره وزوجته ألا يقربا الشجرة ، وحذرهما من عداوة الشيطان ، ثم تركهما بعد أن أمدهما بالعقل المفكر والاختيار الحر والنفس الملهمة بالتقوى والفجور بالمناصفة ، ولكن الشيطان وسوس لهما فاختارا المعصية على الطاعة وكان هذا امتحاناً لهما من الله ، فلما انكشفت عوراتهما أحسا بالاثم والخطيئة وندما على ذلك فأقبلا يسترانها بورق الجنة وحينئذ ناداهما ربهما معاتباً ، قال تعالى ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ ٢٢ ــ الأعراف .

فأجابا ربهما نادمين ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ٢٣ ــ الأعراف .

حينئذ نفذ قضاء الله وقدره الأزلى فيهما والذى كتبه عليهما قبل أن يخلقهما بأن يهبط آدم وزوجه إلى الأرض وأن يجعله فيها خليفة يورثها لذريته من بعده ليعمروها جيلا من بعد جيل ، على هذه الأرض التى خلقوا منها يعيشون وفيها يموتون ومنها يبعثون ، ويبتليهم وقت استقرارهم على هذه الأرض فى حياتهم الدنيا بأن يبعث لهم الأنبياء والرسالات السماوية لينظر كيف يعملون فمن اتبع الهدى فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وكان من أهل الجنة ، ومن أعرض عن الهدى وكفر بما جاءه من ربه فإن له فى الدنيا معيشة ضنكا وله فى الآخرة العذاب والشقاء وكان من أهل النار .

والله عز وجل لم يجبر آدم وزوجه على معصيته ولكنه خلق نوعاً من الإنسجام بين

اختيارهما الحر للمعصية وقدرهما الذى قدره لهما وهو الهبوط إلى الأرض ليكون لهما فيها مستقر ومتاع إلى قيام الساعة. .

وشاءت حكمة الله أن يتعلم آدم من هذه التجربة القاسية التى عاشها دروساً تعينه وذريته من بعده على مواجهة الحياة ، فتعرفوا على حقيقتهم وغرائزهم البشرية ، وتيقنوا من عداوة الشيطان لهم ، واتخذوا من التوبة والاستغفار وسيلة يتطهرون بها من خطاياهم وسبيلا إلى مرضات ربهم يلتمسون منه الصفح والعفو والعون على مواجهة أعباء الحياة فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وتعلموا أن القوة والغنى والسعادة فى اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه والإعتصام بشرائعه ورسالاته ، وأن العجز والفقر والذل والتعاسة فى اتباع هوى النفس والاستغناء بغير الله عن الله .

الدروس والعبر المستفادة من قصة آدم عليه السلام :

١ - التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة بشهادة الإله الخالق الذى يعلم من خلق وما تخفى الصدور ، وتكرار تحذيره لآدم وذريته من مغبة ذلك ، قال تعالى ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ ، ثم إن الله عز وجل أعاد تذكير آدم بهذه العداوة بعد أن وقع فى الفخ الذى نصبه الشيطان له قال تعالى ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

ثم تعاقبت ذرية آدم من بعده جيلاً من بعد جيل واستمر التحذير الإلهى يقول تعالى :

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ٦ ـ فاطر .

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ١٦٨ ، ١٦٩ ـ البقرة .

﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ ٢٧ ـ الأعراف .

ثم يوم القيامة يذكر الله أهل الكفر والمعاصى من بنى آدم بتحذيره المستمر لهم من عداوة الشيطان فى حياتهم الدنيا ويوبخهم على عبادتهم للشيطان من دون الله بطاعته واتباع ما يأمرهم به من الكفر والفحشاء والمنكر ، ولكن بعد أن انتهى كل شيء فلم تعد تنفع التوبة ولا الندم فيساقون إلى جهنم وبئس المصير ، قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التى كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ ٦٠ ـــ ٦٤ : يس ، حينئذ يتبرأ الشيطان من هؤلاء الكفار والعصاه ويحملهم مسئولية أوزارهم ، يقول تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضىَ الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ ٣٢ ـــ إبراهيم ، ويقول تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ ١٦ ـــ الحشر .

٢ – إن التحذير الإلهى المتكرر لآدم عليه السلام وذريته من بعده من عداوة الشيطان وسوء عاقبة من يطيعه ويتولاه من دون الله لدليل على أن الإنسان مخير فى ذلك ، إذ أنه لو كان مسيراً لما استطاع الانتفاع من هذا التحذير ، إذ أن الله عز وجل من المحال أن يكلف عباده بأمر يستحال عليهم تنفيذه ؛ فعلم من ذلك أن معاصى العباد وقعت بمحض إرادتهم واختيارهم يدل على ذلك توبيخ الله لمن أطاع الشيطان واتبع خطاه قائلاً لهم « أفلم تكونوا تعقلون » والعقل هو مناط الإختيار والتكليف كمثل قول أهل النار ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ١١ الملك ، فقد حجبوا أسماعهم وعقولهم عن الحق واتبعوا شهوات النفس وخطوات الشيطان فأضلهم عن سبيل الله .

ومن الأدلة أيضا على أن معاصيهم تمت باختيارهم أن الشيطان بعد أن قضى الأمر خطبهم فى جهنم وتبرأ منهم وألقى باللوم عليهم وحملهم مسئولية أوزارهم .

٣ – لعل سائل يتساءل لماذا غفر الله لآدم عليه السلام معصيته ولم يغفر لابليس معصيته ؟ هناك ثلاثة أسباب الأول يتعلق بطبيعة المعصية ، والثانى يتعلق بالدافع وراء المعصية ، والثالث يتعلق بموقف العاصى فور ارتكابه لمعصيته .

(أ) بالنسبة للسبب الأول فإن مضمون معصية ابليس أن الله جل شأنه أمره أمراً مباشراً واجب التنفيذ فوراً ، فهو أمر لا يحتمل التأجيل ولا التسويف ، حيث أمر الله ابليس والملائكة بالسجود لآدم تكريماً له فسجد الملائكة كلهم أجمعون فور صدور الأمر الإلهى ، أما ابليس فرفض تنفيذ أمر ربه وأعلن تمرده وعصيانه جهاراً ، ولم يكتف بذلك بل إنه انتقص من علم الله وحكمته وأراد أن يشارك الله فى حكمه وملكه ، ذلك أنه ادعى أن آدم عليه السلام لا يستحق هذا التكريم وأنه أحق منه بالتكريم لأنه خير منه خلق من نار وآدم خلق من طين ، ونسى أن الله عز وجل هو الذى خلقه من نار فلا فضل له فى هذه الخلقه ، وأن ميزان التفضيل والتكريم لا ينبى على الجسد المادى وإنما ينبى على القيم الروحية كقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ١٣ — الحجرات ، فذات المخلوق ليست فى جسده وإنما فى روحه التى هى حبيسة هذا الجسد ، يقول تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ٥٨ — الإسراء .

كما أنه تجاهل أن التفضيل والتكريم حق للإله الخالق لا ينازعه فى ذلك أحد ، قال تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ٧٣ — آل عمران ، وقال تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ ٣٢ — النجم .

فالله عز وجل كان عليماً حكيماً فعندما كرم آدم وفضله على ابليس يعلم أنه يملك من التقوى وصفاء الروح ونقاء النفس والتواضع وكافة القيم الروحية مالا يملكه ابليس كما أنه سبحانه أودع فى آدم من الاستعدادات الفطرية والطاقة العقلية والفكرية ما يجعله أفضل من ابليس فى عمارة الأرض والقيام بأعباء الخلافة ، وسواء علمنا الأسباب أو جهلناها فإن الإله الخالق من حقه أن

يؤتى الفضل والتكريم لمن يشاء من عباده فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، قال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ ٦٨ ــ القصص ، وقال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ ٢٦ ــ آل عمران .

أما مضمون معصية آدم عليه السلام فهى أن الله عز وجل عهد إليه إذا أدخله وزوجه الجنة ألا يأكلا من الشجرة وحذرهما من عداوة الشيطان لهما ، ولم يرفض آدم أمر ربه حين أمره بذلك بل وعد أن ينفذ ما أوصاه الله به ولكنه نسى أن يحذر من الشيطان فلما وسوس إليه بما يحقق حلمه ويرضى شهوات نفسه نسى فى لحظة الضعف وصية الله له بألا يأكل من هذه الشجرة أو تأولها فأكل منها يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ .

ومعلوم أن الأمر الصادر من الله عز وجل لآدم عليه السلام لم يكن على شاكلة أمره لابليس بالسجود الفورى فإما أن يسجد وإما ألا يسجد باعتباره واجب التنفيذ الفورى دون تأجيل ولا تسويف ، ولكنه كان أمراً مؤجل التنفيذ ، ولم يرفضه آدم بل تلقاه بالقبول إلى أن صادفه عارض أنساه أمر ربه فوقع فى المعصية .

(ب) أما السبب الثانى فإن الدافع وراء معصية ابليس كان الكبر والتعالى عن تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ظناً منه أنه خير منه لأنه خلق من نار أما آدم فقد خلق من طين ، ومعلوم أن صفة الكبر يذمها الله فى عبده لأن الكبرياء لله وحده فما من عبد ينازع ربه هذه الصفة إلا عذبه ، كما أن الله عز وجل قضى أن لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، والجنة هى رحمة الله والنار هى عذابه لذلك فإن ابليس استحق لعنة الله وهى تعنى الطرد من رحمته وما ذاك إلا لثلاثة أسباب ، السبب الأول امتناعه عن تنفيذ أمر ربه ، والسبب الثانى مجادلته لربه لأنه فضل آدم وكرمه عليه وادعاؤه بأنه أحق بالتكريم من آدم لأنه خير منه من حيث الخلقه فهو بذلك قد انتقص من علم

الله وحكمته وأراد أن يشاركه فى حكمه وملكه ، وذلك على النقيض من الملائكة الذين قالوا لربهم ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ٣٢ ـــ البقرة ، والسبب الثالث ما امتلأ به صدره من الكبر والحقد مما لا يخفى على الله الذى يعلم ما تخفى الصدور .

أما الدافع وراء معصية آدم فهو ضعف إرادته ، فقد وسوس إليه الشيطان بما يحقق له شهوات نفسه من الخلود والملك وعدم زوال نعمة الله عليه إن هو أكل من الشجرة وأقسم له بالله إنه لمن الناصحين حتى يصدقه ، قال تعالى عن ابليس ﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ ٢١ ـــ الأعراف ، واستعظم آدم أن يقسم أحد بالله وهو كاذب فصدقه ، ولم يزل ابليس بادم يغريه ويحرك شهواته ويقسم له حتى أنساه مانهاه الله عنه فأكل من الشجرة ناسيــاً أو متأولاً ، المهم أنه عصى ربه ووقع فى الفخ الذى نصبه الشيطان له لأنها كانت التجربة الأولى له مع الشيطان حيث تعلم منها الكثير والكثير .

(جـ) أما السبب الثالث والذى يتعلق بموقف العاصى فور ارتكابه لمعصيته فإن ابليس بعد ارتكابه للمعصية لم يقر بذنبه ولم يندم ولم يطلب من الله العفو والصفح والغفران ، بل على العكس من ذلك فقد طلب من الله أن يمهله ويبقى عليه حياً حتى يوم البعث لينتقم من آدم وذريته ويوسوس لهم ويضلهم عن سبيل الله فيحرمون صفة التكريم ويدخلون جهنم إلا المخلصين لله منهم وهم قليلون ، قال تعالى عن ابليس ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ ٦٢ الإسراء ، وقال تعالى حاكياً عن ابليس ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ١٧ ـــ الأعراف .

أمّا آدم عليه السلام فإنه بمجرد أن عاتبه ربه على معصيته أقر بذنبه وأعلن توبته وندمه وطلب من الله الرحمة والغفران ، قال تعالى على لسان آدم وزوجه ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ٢٣ ـــ الأعراف .

٤ - يقول تعالى ﴿ قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين ، إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا ابليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ ٦٧ ـــ ٧٤ : ص .

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم ليس هو المقصود بقوله تعالى ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ ، لأن القرآن الكريم بالاضافة إلى ما فيه من الأحكام التى تنظم حياة البشر فى أمور المعاملات والعبادات والعقائد ومسائل الحلال والحرام فإنه لا يشتمل على نبأ واحد فقط بل مجموعة من الأنباء والأخبار الغيبية للأولين والآخرين وما كان وما سيكون بغرض الإعتبار والاتعاظ والتذكره ، من أجل ذلك فإن القرآن الكريم لا يطلق عليه لفظ (نبأ) بل يطلق عليه لفظ (ذكر) طالما أنه بين أيدينا والدليل على ذلك قوله تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ٩ ـــ الحجر .

﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ ٥٠ ـــ الأنبياء .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ٢٧ ـــ التكوير .

﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ ٤٥ ـــ ق .

﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾ ١ ـــ ص .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ـــ القمر .

أما قوله تعالى عن القرآن الكريم ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ٨٧ ، ٨٨ ص ، أى ولتعلمن يوم القيامة صدق ما أخبر به القرآن الكريم من أنباء وأخبار غيبية .

إن الإسلوب القرآنى عندما يتحدث عن نبأ من الأنباء التى لها قصة فإن الله تعالى يبدأ بلفظ (النبأ) أولاً ليجذب الإنتباه لسماع القصة ، ثم تأتى القصة بعد ذلك ، وكمثال على ذلك قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم

بالحق﴾ ، ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾، ﴿واتل عليهم نبـأ إبـراهيم﴾، ﴿ألم يأتكـم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ ، ﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ . فإذا قارنا ذلك بقوله تعالى ﴿ قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ﴾ حتى قوله تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكـة إنى خالق بشراً من طين ﴾ وانتهاء بقوله تعالى ﴿ قال فالحق والحق أقـول ، لأمـلأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ، لعلمنا أن النبأ العظيم هو قصة خلق آدم وتكريمه ، وإعلان ابليس عداوته لآدم وذريته بسبب هذا التكريم ، ثم وعيد الله بأن يملأ جهنم بابليس ومن يتبعونه من ذرية آدم) .

وإذا أمعنا النظر لوجدنا أن لفظ (نبأ) ورد فى القرآن الكريم خمسة عشر مرة منها مرتين فقط وصف الله فيهما النبأ بأنه عظيم ، المرة الأولى نبأ يوم البعث قال تعالى ﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون ﴾ باعتباره يوم الجزاء فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ومن كفر أو خفت موازينه لكثره المعاصى دخل النار .

أما المرة الثانية التى وصف فيها النبأ بأنه عظيم فهو تفاصيل هذه القصة التى بين أيدينا والتى تتضمن الحوار الذى تم بين الله عز وجل وابليس عليه لعنه الله ، حيث أظهر إبليس عداوته لآدم الذى كرمه الله وفضله عليه وتوعد بأن يبذل قصارى جهده لإغواء الأكثريه من ذريـة آدم وصرفهـم عن طاعـة الله إلى معصيته ، ثم وعيد الله عز وجل له ولمن اتبعه منهم أن يدخلهم جهنم وبئس المصير وتحذيره لآدم وذريته من بعده من شدة عداوة الشيطان لهم وأن عليهم أن يبادلونه العداء ولا يطيعونه .

والحقيقة أن نبأ هذه القصة بالـذات ليست كنبـأ أى قصة أخـرى حدثت لأى نبى من الأنبياء أو لأى أمة من الأمم ومن أجل ذلك فقد استفتحها الله تعالى بقوله ﴿ قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ﴾ لأنها تسجل مولد الشر المتمثل فى ابليس اللعين ، وتمهد لبداية الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، كما أنها تمهد لأول معصية بشرية وبالتالى بداية العداوة المتبادلة وإعلان الحرب بين آدم وذريته وإبليس وذريته حيث حذرنا الله من عداوتهم بقوله

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ ٥٠
ــ الكهف .

لو أدرك الناس مغزى هذه القصة والحوار الذى تم بين الله عز وجل وإبليس اللعين لما وقع أكثرهم فى حبائل الشيطان ولكن للأسف فهم عن هذا النبأ العظيم معرضون عن تدبر ما فيه من العبرة والعظة علماً بأن جميع المعاصى التى ارتكبها وسيرتكبها بنو آدم استجابة لوسوسة الشيطان لها صلة قوية بأحداث هذا النبأ العظيم .

كما أن النبأ العظيم الثانى وهو نبأ البعث له صلة قوية بأحداث النبأ العظيم الأول ، ذلك لأن يوم البعث هو يوم الجزاء حيث يحاسب فيه العباد على معاصيهم فى الدنيا لأنهم لم يتفطنوا لكيد الشيطان وعداوته وأعرضوا عن تدبر أحداث النبأ العظيم الأول ، ولذلك فإن دخولهم النار هو تحقيق للوعيد الذى ذكره الله تعالى فى النبأ العظيم الأول بقوله ﴿ قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ٨٤ ، ٨٥ : ص .

٥ – إن علم الله سابق لقضاء الله وقدره ولذلك فإن الله عز وجل يقدر مقادير العباد عن علم سابق وحكمه ، يقول تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ١٢ ــ فصلت ، وبناء على علم الله الأزلى السابق فإنه تعالى خلق القلم أولاً ثم أمره أن يكتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فكل شيء مدون بناء على علم الله السابق سواء كانت أقداراً اختيارية للعباد دخل فيها وهى المعاصى التى علم الله أنهم سيرتكبونها بإرادتهم واختيارهم الحر ، أو أقداراً إجبارية ليس للعباد دخل فيها .

والله عز وجل عليم حكيم قدير محيط بكل شيء فهو عندما كتب مقادير كل شيء أحدث إنسجاماً بين الأقدار الإجبارية والأقدار الإختيارية فلا تناقض ولا تعارض بينهما ، بل جعل بعض الأقدار الإجبارية التى لاخيار للعباد فيها مترتبة على الأقدار الإختيارية التى للعباد دخل فيها دون أن يؤثر ذلك على اختيار العباد .

فالإنسجام بين هذين النوعين من الأقدار محكوم ومقيد بأمور قضاها الله وكتبها على نفسه مثل قوله تعالى فى الحديث القدسى « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » رواه مسلم ، وقول النبى ﷺ «قال الله عز وجل سبقت رحمتى غضبى» رواه مسلم، ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ ٥٤ ـــ الأنعام، وقوله تعالى ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ ١٥٦ ـــ الأعراف ، فالله عز وجل لا يقدر قدراً إجباريا يلزم العبد على المعصية أو يدخله جهنم ظلماً فقد قال تعالى عن يوم القيامة ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ٥٤ ـــ يس ، بل على العكس من ذلك فإنه يرحم عباده المتقين ويعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم .

وتوضيحا لما سبق أن ذكرناه نقول بأن الله عز وجل علم قبل أن يكتب المقادير بأن إبليس يضمر فى نفسه الفسوق والكبر وأنه سيعصيه مختاراً ولن يسجد لآدم ولن يقبل أن يكون آدم مكرماً ومفضلاً عليه ، وأن آدم سيختار المعصية على الطاعة وبناء على هذا العلم الإلهى كتب الله نوعين من الأقدار قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، أقداراً إختيارية للعباد دخل فيها ، وأقداراً إجبارية لاخيار للعباد فيها .

كتب الله سبحانه وتعالى أن يخلق آدم ويأمر ابليس والملائكة بالسجود له وهذا قدر إجبارى لاخيار لهم فى ذلك ، وكتب معها أن يعصيه إبليس مختاراً وهذا قدر اختيارى من فعل ابليس أذن الله أن يقع فى ملكه ، ورتب على ذلك أن يكون رجيماً ملعوناً أى مستوجباً لدخول النار خالداً مخلداً فيها وهذا هو قدر إبليس الإجبارى لا يملك دفعه ولاخيار له فى ذلك ، كل مافى الأمر أن الله أمهله مدة الحياة الدنيا ليمتحن به ايمان ذرية آدم وأجل عذابه المحتوم إلى يوم الجزاء وهو اليوم الذى خصصه الله لمعاقبة من عصاه .

وبالنسبة لآدم عليه السلام فإن الله عز وجل كتب أنه سيعصيه مختاراً وأنه سيتوب إليه ويستغفره وهذا قدر إختيارى من فعل آدم أذن الله أن يقع فى

ملكه ، وبرغم أن الله عز وجل عفا عنه ورفع عنه عقوبة هذه المعصية يوم القيامة إلا أنه رتب على هذه المعصية مجموعة أقدار إجبارية لا حيلة لآدم فيها وهى خروجه من الجنة وهبوطه وزوجه إلى الأرض مع ابليس اللعين وما يتبع ذلك من إرسال الرسل والأنبياء بالرسالات السماوية إلى ذريته من بعده ليشتد الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر وليمتحن بإبليس إيمان ذرية آدم حتى تقوم الساعة فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ، ومن كفر أوخفت موازينه من كثرة المعاصى دخل النار .

مما سبق نجد أن الله عز وجل حينما قدر مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كان تقديره عن علم سابق وليس تقدير جزافى أو عشوائى مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ، ونتيجة لعلمه السابق المحيط فإن أقدار العباد الإختيارية والإجبارية جاءت منسجمة لا تناقض ولا تعارض فيها ولا يتسبب عنها أدنى ظلم للعباد .

والعبد يعد مسئولاً عن معصيته ولكنه ليس مسئولاً مسئولية مباشرة عما يترتب على هذه المعصية من أقدار إجبارية لأنه لم يقصدها وليس له حيلة فيها ولنضرب مثلا لذلك لو اقتحم لص منزلاً بقصد السرقة فرأته ربة المنزل أو الخادمة فألقت بنفسها من الشرفة فماتت ، وسواء كان وقوعها بسبب الخوف عن خطأ منها أو عن تعمد فإن اللص لم يقصد أن يتسبب فى قتلها ولكن قدر لها أن تصاب بقدرها الإجبارى الذى كتبه الله عليها وهو الموت ، فاللص يحاسبه ربه على جريمة السرقة واقتحام المنازل ولكنه ليس مسئولاً مسئولية مباشرة عن حادثة الموت ، أما قول النبى ﷺ « من سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم ، فإنه عند تشابه نوعية الجريمة بين مرتكبها وبين من قلدوه ، فمثلاً لو أن هذا اللص اقتدى به مجموعة من صبيانه ففعلوا مثل فعلته فاقتحموا المنازل وسرقوها لتحمل هذا اللص وزره ووزرهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء ، وقابيل ابن آدم عليه السلام كان أول من سن القتل لأنه ارتكب أول جريمة قتل على وجه الأرض ولذلك فانه يتحمل وزر كل من قلده وقتل نفساً بريئة بغير حق حتى تقوم الساعة مصداقاً لقول النبى ﷺ « ليس

من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » متفق عليه .

مما سبق يتضح لنا أن آدم عليه السلام بعد مسئولاً عن قدره الإختيارى الذى أصابه من جزاء معصيته لربه ولكنه ليس مسئولاً مسئولية مباشرة عن الأقدار الإجبارية التى ترتبت على معصيته والتى حددت مصير ذريته من بعده مثل خروجه وزوجه من الجنة وهبوطهما مع ابليس إلى الأرض وما تبع ذلك من إنزال الكتب السماوية وارسال الرسل وانقسام ذريته إلى فريقين أهل الايمان والعمل الصالح وهم أهل الجنة ، وأهل الكفر والضلال والمعاصى وهم أهل النار .

من هذا المنطلق يتبين لنا سبب ظهور آدم على موسى بالحجة كما ورد ذلك فى الأحاديث النبوية التى رواها الإمام مسلم بشأن حجاج آدم وموسى عليهما السلام حيث أن موسى عليه السلام بدلاً من أن يلومه على معصيته لربه وهى من الأمور التى تمت باختياره ولا يستطيع نفى مسئوليته عنها ، بدلاً من ذلك فقد حمله مسئولية إخراج ذريته من الجنة وإهباطهم إلى الأرض وما ترتب على ذلك من تعرضهم لإغواء الشيطان وما أصيبوا به من الخيبة ، وهذه جميعها تعد أقداراً إجبارية لاحيلة لآدم فيها ولا اختيار ولا يتحمل مسئوليتها برغم أنها جاءت مترتبة على معصيته ولكنها إرادة الله لا اختيار للعبد فيها .

قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة » ، وفى رواية ثانية « أنت آدم الذى أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة » ، وفى رواية ثالثة « أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض » ، وفى رواية رابعة « أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة » فقال له آدم « أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه ثم تلومنى على أمر قد قدر علىَّ قبل أن أخلق » قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » أى غلبه بالحجة وظهر عليه بها . والأمر الذى قصد آدم عليه السلام أنه قدر عليه قبل أن يخلق هو إخراجه من الجنة وإهباطه إلى الأرض مشيراً بذلك إلى قوله تعالى لملائكته قبل خلقه ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ٣٠ ــ البقرة .

وما دامت مشيئة الله قضت قبل خلق آدم بأن يجعله خليفة فى الأرض وهذا يعنى أن يكون ساكناً لها فإن أمر إخراجه من الجنة وإهباطه إلى الأرض هو مصير مقدر ومحتوم لا يملك آدم تغييره ، والدليل على ذلك قوله تعالى عن علاقة الإنسان بالأرض التى خلق منها ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ٥٥ ـ طه ، فهذه إرادة الله وقدره لاخيار للعبد فى ذلك .

هناك نوعان من الأقدار الإجبارية لاخيار للعبد فيها ، النوع الأول هى الأقدار المترتبة على أفعال العباد لايسأل العبد عنها وإنما يسأل عن أفعاله فقط ومن الأمثلة على ذلك خروج آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض ودخول فريق من ذريته إلى الجنة ودخول الفريق الآخر إلى النار ، فالعباد لا يسألون لماذا دخلتم النار ؟ ولكن يسألون ما الذى أدخلكم النار ؟ ، إجابة السؤال الأخير أن الكفر والمعاصى أدخلتهم النار ، أما إجابة السؤال الأول فهى أنهم دخلوا النار لأن الله جعلها عقوبة لمن كفر به وعصاه ولو شاء الله أن يعاقبهم بعقوبة غيرها لفعل ، فتحديد العقوبة يعود لمشيئة الله لا دخل ولا خيار للعبد فيها وإنما يسأل العبد فقط عن معاصيه التى أوردته موارد التهلكه لأنها قدر إختيارى فعلها بمحض حريته واختياره ، ودليل ذلك من القرآن الكريم أن الله عز وجل لم يقل (لماذا سلكتم سقر) لأن إجابتها أنهم سلكوا سقر لأن الله عز وجل أرادها عقوبة لهم لاخيار لهم فى ذلك ، ولكن الله تعالى قال ﴿ ما سلككم فى سقر ﴾ أى ما الذى سلككم فى سقر ؟ فقالوا إن كفرنا ومعاصينا هى التى سلكتنا فى سقر ﴿ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ، واليقين هو المصير الذى حدده الله لهم مشتملاً على العقوبة التى حددها لهم لاخيار لهم فى ذلك وهو البعث والحشر ومعاينة سقر ودخولها فلم تنقذهم شفاعة الشافعين من أن يلاقوا هذا العذاب الذى قدره الله لهم والمترتب على كفرهم ومعاصيهم لأنهم إن ماتوا على الكفر والمعصية صارت مسألة عذابهم فى نار جهنم قدر إجبارى لا حيلة لهم فى دفعه .

أما النوع الثانى من الأقدار الإجبارية فهى الأقدار التى لا تترتب على أفعال العباد مثل خلق الجنة وخلق النار فهى مسألة كونية كخلق السموات

والأرض والشمس والقمر تتم بمقتضى إرادة الله ومشيئته لا اختيار للعباد فى ذلك وهى منفصلة ومستقلة تماماً عن أفعال العباد .

نخلص من ذلك أن دخول العباد الجنة أو النار هى أقدار إجبارية مترتبة على أفعال العباد لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه ، أما خلق الجنة والنار فإنها أقدار إجبارية ليست مترتبة على أفعال العباد بل هى مسألة كونية كخلق الكرسى والعرش والقلم والسموات والأرض والملائكة والإنس والجن وجميع المخلوقات .

الفصل الثالث
الجبر والإختيار

الجبر يقصد به الأفعال التى لم تصدر عن الإنسان أو التى لا اختيار له فيها ، أما الإختيار فيقصد به الأفعال التى صدرت عن الإنسان باختياره ، فمثلاً الأفعال الصادرة عن الإنسان المكره أو المجنون أو النائم أو السكران لا اختيار له فيها ، ولو أن السكران يحاسب على أفعاله المحرمة التى ارتكبها بنفسه ليس لأنها من اختياره ولكن لأنها مترتبة على فعل تم باختياره وهو تناول المسكر .

وإذا أذن الله لهذين النوعين من الأفعال الإجبارية والإختيارية أن يحدثا انقلبت لأفعال إلى أقدار وأطلق على النوع الأول أقداراً إجبارية وعلى النوع الثانى أقداراً إختيارية وكلاهما حتمى الحدوث وواقع لا محاله لا يملك الإنسان منعه ولا دفعه .

أنواع الأقدار :

تنقسم الأقدار من حيث علاقتها بالإنسان إلى ثلاثة أنواع :

١ - أقدار إختيارية :

وهى عبارة عن علم ومشيئة ، علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ، ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد ويبرز إلى حيز الوجود .

ومن الأمثلة على هذه الأقدار الإختيارية التى تكتب على العبد ما يرتكبه من جرائم الشرك أو القتل أو السرقة أو الزنى أو غير ذلك من أبواب الشر ، وكذلك ما يفعله من أبواب الخير كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصلة الرحم والإحسان إلى عباد الله .

ومما لا شك فيه أن العبد مسئول عن هذه الأقدار الإختيارية التى كتبت عليه ويحاسب عليها يوم القيامة لأنه هو الذى رسم لنفسه هذه الأقدار بما قدمت يداه من أفعال تمت بمحض إرادته واختياره الحر ، كما أنه يعاقب على مالم يأتيه من الأفعال .

كتركه ما أوجبه الله عليه ، ويثاب على مالم يأتيه من الأفعال كتركه ما حرمه الله عليه فمصير الإنسان موكول باختياره وفق مشيئة الله ، فإما أن يختار من الأعمال ما يوصله إلى الجنة والكرامة ، وإما أن يختار من الأعمال ما يوصله إلى العذاب والمهانة ، فكل إنسان يحمل تبعة مصيره ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهنها ، فإذا كان يوم القيامة حوسب العبد على ما قدمت يداه ووجد ذلك مكتوباً ومدوناً فى كتاب قد أحصى عليه كل شىء ، وفوق ذلك كله وقبل ذلك كله فإن ما اختاره من الأعمال مقدر فى علم الله ومدون قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما جاء فى السنة النبوية الصحيحة . يقول تعالى عن كتاب العبد يوم القيامة ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ١٣ ، ١٤ ــ الإسراء . ويقول تعالى ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾ ٤٩ ــ الكهف .

ويقول تعالى فى الحديث القدسى « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

حينئذ يعلم الإنسان أن نفسه مرهونة ومأخوذة بما كسبت من الأعمال فتوزن حسناته وسيئاته والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فهو من أصحاب اليمين تتحرر نفسه من الرهن ويدخل الجنة خالداً مخلداً فيها برحمة الله وفضله لا يخرج منها أبدا . وينعم بحياة سعيدة لا يشقى بعدها أبدا .

ومن خفت موازينه فإن نفسه تظل مرهونة فيقتص الله منه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر فيهوى فى نار حامية لا يموت فيها ولا يحيا .

يقول تعالى ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ﴾ ٣٨ ، ٣٩ ــ المدثر .

٢ - أقدار إجبارية مترتبة على أفعال العباد :

مثل دخولهم الجنة وتحديد درجاتهم فيها أو دخولهم النار وتحديد دركاتهم فيها ،

وهى أمور قدرها الله بمشيئته وحده وفقاً لما علمه منذ الأزل من ايمان عبده أو كفره وما سيأتى به من الأعمال فى دار الدنيا .

والعبد لا يُسأل عن هذه الأقدار لأنها لم تتم بمشيئته ولا اختياره ولا حيلة له فى دفع هذا القدر عنه وإنما هذه الأقدار من فعل الله وبمشيئته وحده لأنه هو الذى له حق تحديد العقوبة على من كفر به وعصاه ولو شاء الله لاختار لهم عقوبة أخرى غير دخول النار ، كما أنه هو وحده الذى له حق تحديد الأجر لمن آمن به وعمل صالحاً ولو شاء لاختار لهم أجراً وثواباً آخر غير دخول الجنة .

إن أهل سقر لم يسألوا « لماذا سلكتم سقر ؟ » لأن دخولهم سقر تم بمشيئة الله وحده الذي اختار لهم هذه العقوبة فهى من الأقدار الإجبارية التى لاحيلة لهم فى دفعها ، ولكنهم سُئلوا عن كفرهم ومعاصيهم التى أدت بهم إلى دخول سقر وهذا هو معنى قوله تعالى « ما سلككم فى سقر » فجاءت اجابتهم متضمنة ذكر ما كانوا عليه من الكفر وما قدموه من المعاصى .

والعبد لا يعرف المصير الذى قدره الله له ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه لتتداركه رحمة الله وفضله فإذا التمس الوسيلة التى أرادها الله منه وهى الإيمان والعمل الصالح بلغ مصيره الذى قدرة الله له وهو دخول الجنة ، أما إذا التمس الوسيلة التى نهاه الله عنها وهى الكفر والفسوق والعصيان بلغ مصيره الذى قدره الله وهو دخول جهنم أعاذنا الله منها .

إن قدر الله فى عبده يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه لأن الله قد خلق له القدرة على توجيه نفسه إلى الخير أو الشر .

علينا إذن أن ننفق طاقتنا فى آداء ما كُلفنا به وأن ندع لله غيب مشيئته فينا ، ومن الأمثلة الأخرى للأقدار الإجبارية المترتبة على أفعال العباد المصائب المترتبة على معاصى العباد وهى التى أشار إليها الله عز وجل بقوله ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ٧٩ ـــ النساء ، وقوله ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ ـــ الروم ، وقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ ٣٠ ـــ الشورى ، وقول النبى ﷺ « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وكذلك الأمراض التى تصيبه بسبب إهماله أو تعاطيه ما يضره

كالتدخين والمسكرات والمخدرات أو بسبب ممارسته للرذيلة حيث يصاب بالأمراض الجنسية الفتاكة . وكذلك الرزق الذى كتبه الله لمن أخذ بأسبابه فعمل وكدح واجتهد ولم يتكاسل أو يتقاعس عن سعى لتحصيل لقمة العيش فالعبد عليه أن يسعى ويعمل لأن سنة الله قضت فى أغلب الأحيان ألا يعطى الرزق إلا لمن سعى وأخذ بالأسباب مع إيماننا الكامل بأن الله هو الرازق وأنه قدر للإنسان رزقه منذ ولادته حتى مماته فهو مدركه لا محاله ولكنه حينما قدر للعباد أرزاقهم كان عليماً حكيماً .

وبرغم أن العمل يعد وسيلة لتحصيل الرزق إلا أن هذا الرزق الذى يجنيه العبد من عمله متفاوت وفقاً لما قدره الله له ، فقد يكون وفيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون معدوماً ، أى أن العمل قد يثمر الكثير أو القليل وقد لا يثمر وفقاً لما قدره الله لعبده من الرزق .

وكما أسلفنا فإن العباد يسألون فقط عما اعتقدوه من الايمان أو الكفر وما قدموه من أفعال ونوايا صالحة أو فاسدة ، ولكنهم لا يسألون عما ترتب على أعمالهم ونواياهم وعقائدهم من أقدار إجبارية كتبها الله عليهم ، إلا أن يسخطوا على ما قدره الله عليهم أو ينكروه فيسخط الله عليهم ويعذبهم .

٣ - أقدار إجبارية ليست مترتبة على أفعال العباد :

وهى تنقسم من حيث ارتباطها بالإنسان إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول يتعلق بذاتية الكون كخلق السموات والأرض والجنة والنار وجميع المخلوقات ونزول الغيث وشروق الشمس شرقاً وغروبها غرباً وتعاقب الليل مع النهار والصيف مع الشتاء والشمس مع القمر وطبيعة الأرض وما تحدث لها من هزات وزلازل وبراكين وفيضانات وغير ذلك مما يتعذر حصره .

والصنف الثانى يتعلق بذاتية الإنسان كميلاده وعمره ومماته وطبيعة جسمه حجماً ولوناً ومنظراً وتكويناً وطبيعة نسله عدداً ونوعاً .

والصنف الثالث يتعلق بالمستجدات التى تطرأ على الإنسان كالنعم والأرزاق التى تساق له من حيث لا يدرى وهى ليست من كسبه ولا سعيه وكذلك الأمراض والمصائب والأضرار التى لحقت به على سبيل الإبتلاء ولم يكن سبباً فيها ولم تترتب على

معاصيه كالتى تصيب الأنبياء والمقربين والأخيار .

والله جل شأنه لا يسأل عباده عن هذه الأمور القدرية لأنها خارجة عن إرادتهم واختيارهم وليست من أفعالهم ولا مترتبة على أفعالهم بل هى من فعل الله وحده وإنما يسألون عن مواقفهم من هذه الأمور فإذا كفروا وجحدوا بنعمة ربهم أو سخطوا على قضاء الله وقدره أو أنكروا القضاء والقدر ولم يؤمنوا به استحقوا عذاب الله وسخطه .

لماذا قدر الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق الخلق ؟

ولماذا كانت الأقدار جميعها مسبوقة بمشيئة الله ؟

١ – لأن ذلك يعد مظهراً من مظاهر شمول علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونفاذ إرادته فجميعها صفات إلهية قد أحاطت بالكون إحاطة كاملة ووسعت كل شيء جملة على مستوى الوجود كله ، وتفصيلاً على مستوى كل مخلوق على حده .

وإن تدخل مشيئة الله فى جميع أقدار الناس الإجبارية والاختيارية وأقدار سائر المخلوقات يعد حقاً للإله الخالق لا ينازعه فيه أحد ولا يشاركه فى ملكه أحد فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل ومن سواه يُسألون .

٢ – لأن الله عز وجل بعد أن خلق الكون لم يتركه يدبر أمره بنفسه إذن لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولهلك كل شيء ، فهو سبحانه الحى القيوم ، وصفة (القيوم) تعنى قيامه على كل مخلوق ، كما تعنى قيام كل مخلوق به فلا قيام لشيء إلا مرتكناً إلى وجود الخالق وإرادته وتدبيره ، وهو سبحانه الصمد أى المقصود بتلبية حاجات المخلوقات وهو الذى يقضى فى كل أمر فلا يقضى أمر إلا بإذنه .

يقول تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ٤١ فاطر .

ويقول تعالى ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ ٦٥ ــ الحج .

إن الله هو الغنى الحميد فهو غنى فى ذاته أما الكون فلا غنى له عن الله بل هو أحوج ما يكون إليه وهذا الاحتياج هو شرط لبقائه وصلاحه .

من أجل ذلك كانت مقادير ومقاليد الأمور بيدى الله يصرفها كيف يشاء ويدبر

الأمر كله ، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه .

إن كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود مخلوقة بقدر ومصرفة بقصد ومدبرة بحكمة فلا عبث ولا مصادفة ولا عشوائية .

يقول الشهيد سيد قطب (كل شىء ، كل صغير وكل كبير ، كل ناطق وكل صامت ، كل متحرك وكل ساكن ، كل ماضى وكل حاضر ، كل معلوم وكل مجهول ، كل شىء خلق بقدر ، قدر يحدد حقيقته ويحدد صفته ويحدد مقداره ويحدد زمانه ويحدد مكانه ويحدد إرتباطه بسائر ما حوله من أشياء وتأثيره فى كيان هذا الوجود ، هذا الوجود المترامى الحدود منوط بقدر الله ، متعلق بمشيئته وهو قائم بتدبيره ، هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ويتناول كل فرد فيه على حده ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة ويعطى كل شىء خلقه كما يعطيه وظيفته ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته، هذا التدبير الذى يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة وما يكمن من حبة فى ظلمات الأرض وكل رطب وكل يابس ، يتبع الأسماك فى بحارها والديدان فى مسارها والحشرات فى مخابئها والوحوش فى أوكارها والطيور فى أعشاشها وكل بيضة وكل فرخ وكل جناح وكل ريشة وكل خلية فى جسم حى ، وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ولا يعزب عن علمه ظاهر ولا خاف) .

يقول تعالى عن نفسه ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ ٢٩ ــ الرحمن ، أى يفتقر إليه تعالى كل من فى السموات والأرض ويسألونه العون والرزق وهو سبحانه وتعالى فى كل ساعة وفى كل لحظة فى شأن من شئون الخلق .

٣ – إن أقدار المخلوقات لابد أن تكون مسبوقة بمشيئة الله لأن مشيئة الله ضرورية للمحافظة على توازن نظام الكون وتوازن أحداثه وأحداث العباد فلو ترك الأمر لاختيار العباد فقط لاختل النظام وتعارضت المصالح وتضاربت الأحداث وما أمكن ربط أحداث الكون بعضها ببعض لأن فى اختيار العبد الواحد قد تتحدد مصائر أناس آخرين .

كما أن مشيئة الله تعالى ضرورية لحدوث الإنسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الإختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الأثنين ، وبحيث

يتعانقان ويتلاقيان معاً فى النهاية فى خط واحد ومفهوم واحد ، وهذا الإنسجام أمر لا بد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس .

ولما كان الله عز وجل قد أمد البشر بالإرادة والقدرة على الإختيار بين المتضادين فإنه من المتوقع بديهة أن ينعكس الإختيار بين شخصين بسبب تعارض المصالح فيما بينهما فيترتب على ذلك تصادم إرادة أحدهما بإرادة الآخر ، فقد يريد أحدهما أن يحرك شيئاً إلى اليمين بينما يريد الآخر فى نفس الوقت أن يحركه إلى اليسار ومن المحال الجمع بين المتضادين فى وقتٍ واحد فإما أن يتحرك يميناً وإما أن يتحرك يساراً وإما أن يظل ساكناً بلا حراك ، من أجل ذلك كان لابد من تدخل المشيئة الإلهية لتأذن لأحد الإختيارين أن يحدث ولا تأذن للآخر أو لا تأذن لهما معاً ، فمشيئة الله ضرورية حتى لا يحدث التعارض والتصادم بين مشيئات البشر واختياراتهم ، ولا تعد مشيئة الإنسان نافذة إلا إذا ساندتها مشيئة الله وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ ــ التكوير ، وقوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيءٍ إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ٢٣ ــ الكهف .

إن المشيئة الإلهية القادرة على التحكم فى الأحداث والسيطرة على الكون بأكمله هى منتهى القدرة والحكمة والشمول والإحاطة .

مراحل تقسيم القدر زمنياً :

أولاً : التقدير الأزلى الأول : وهو التقدير العام لجميع الأشياء والأحداث والأفعال فى علم الله الأزلى ومشيئته قبل كتابتها وتدوينها وقبل أن يخلق الله الكون ، يقول تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ١٢ ــ فصلت .

ثانيا : التقدير العام المدون قبل خلق الكون : وهى مرحلة تدوين وكتابة مقادير جميع الأشياء والأحداث والأفعال التى علمها الله وشاءها قبل أن يخلق الكون .

قال رسول الله ﷺ « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه الترمذى ومسلم .

وفى رواية « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلـق السمـوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم .

وقال رسول الله ﷺ « أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » رواه مسلم .

وفى رواية « أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » رواه الترمذى وأبو داود .

ثالثاً: : التقدير العمرى الخاص بكل إنسان على حده عند خلقه فى بطن أمه : وهو تقدير لكل ما يجرى على العبد منذ ولادته حتى مماته شاملاً رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، وهو جزء من التقدير العام السابق ذكره لا يخرج عنه ولا يتعارض معه ولا يزيد عليه بشيء جديد بل هو قديم فى علم الله ومطابق لما سبق تدوينه .

قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفـة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

رابعاً : التقدير السنوى لما سيكون وما سيقع من الأشياء والاحداث والأفعال خلال سنة هجرية كاملة : ففى ليلة القدر يكتب من أم الكتاب المدون به التقدير العام ومقادير كل شيء يكتب منه تقدير ما سيكون خلال سنة هجرية كاملة .

يقـول تعـالى ﴿ إنـا أنزلنـاه فى ليلـة مباركـة إنـا كنـا منذرين ، فيها يفـرق كل أمـــرٍ حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ ٣ ــ ٥ : الدخان .

ويقول تعالى ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ ١ القدر ، ففهم من مجموع هذه الآيات الكريمة أن الليلة التى يفرق فيها كل أمرٍ حكيمٍ هى ليلة القدر .

قال ابن عباس رضى الله عنهما « يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما هو كائن فى السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال : يحج فلان

وفلان ويحج فلان » .

وقال الحسن ومجاهد « يبرم فى ليلة القدر فى شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون فى تلك السنة » .

خامساً : التقدير اليومى لما سيكون وما سيقع من الأشياء والأحداث والأفعال :

قال تعالى ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ ٢٩ ـــ الرحمن ، أخرج ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال عن معنى هذه الآية الكريمة « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » .

كما أخرج ابن جرير أن ابن عباس رضى الله عنهما قال عن معنى هذه الآية الكريمة « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق فى كل نظرة ، ويحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء » .

وهذا التقدير اليومى جزء من التقدير العام لا يخرج عنه ولا يتعارض معه ولا يزيد عليه بشىء جديد بل قديم فى علم الله ومطابق لما سبق تدوينه .

قال المفسرون عن هذا التقدير اليومى الوارد فى قوله تعالى ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ هى شئون يبديها ولا يبتديها أى يظهرها للخلق ولا ينشئها من جديد لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ويمرض سليما ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ويغنى فقيراً .

وبذلك يكون التقدير اليومى هو المرحلة التى يدخل فيها القدر المكتوب إلى حيز التنفيذ أى الذى عنده يقع القدر ويتحقق

من أنكر القدر فقد كفر :

١ – لقد سمى الله تبارك وتعالى الذين أنكروا القدر (كفاراً) لأنهم أرجعوا الموت والقتل إلى أسبابهما ولم يرجعوهما إلى الأقدار التى كتبها الله على عباده قبل أن يخلقهم ، ولقد حذر الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى القول والاعتقاد فيكفرون

مثلهم .

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ ١٥٦ ــ آل عمران .

٢ - كما سمّى الله منكرى القدر (مجرمين) وتوعدهم بالعذاب يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ ٤٧ ــ ٤٩ القمر .

٣ - كما سمّاهم رسول الله ﷺ (خصماء الله) ، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن أسقف نجران جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا محمد تزعم أن المعاصى بقدر وليس كذلك فقال ﷺ : أنتم خصماء الله » . كما أخرج ابن مردويه وذكره السيوطى فى (الدر المنثور) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة أمر منادياً فنادى نداء يسمعه الأولون والآخرون : أين خصماء الله ؟ فتقوم القدرية فيؤمر بهم إلى النار » ، والقدرية هم الذين أنكروا القدر .

٤ - كما سمّاهم رسول الله ﷺ « مجوس هذه الأمة » ، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ، كما أخرج أحمد فى مسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ « لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف » ، ومعنى (أنف) أى مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه .

قال الإمام النووى عند شرحه لصحيح الإمام مسلم (واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى ، وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنها مستأنفة العلم أى إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله ، سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيرا ، وسميت

هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر ، وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل وصارت القدرية فى الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن يقولون الخير من الله والشر من غيره « أى أنهم ينكرون القدر إنكاراً جزئياً وهو ما يتعلق بالشر » تعالى الله عن قولهم ، ولقد جعلهم رسول الله ﷺ مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس حيث قال المجوس بالأصلين النور والظلمة .يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ومضافان إلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً) .

٥ – لقد بين رسول الله ﷺ بأن الإيمان المنافى للكفر يتضمن الإيمان بالقدر خيره وشره وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم من حديث جبريل عليه السلام وسؤاله للنبى ﷺ عن الإيمان فقال له رسول الله ﷺ « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، فقال جبريل عليه السلام « صدقت » ، ولما انصرف جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » .

ومصداقاً لهذا الحديث ما أخرجه مسلم عن ابن عمر قوله « والذى نفسى بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » .

ولقد أجمع أهل العلم على تكفير الذين ينكرون القدر ، وهم الفلاسفة فى الحقيقة .

الرد على من سخط على قضاء الله وقدره :

يقول الدكتور مصطفى محمود فى إحدى مؤلفاته رداً على الذين يسخطون ويتطاولون على قضاء الله وقدره ولا يعجبهم أن تتدخل مشيئته النافذة فى تحديد أقدار العباد الإجبرية ويتهمونه فى صفاته العليا سبحان الله وتعالى عما يصفون : (يقولون ساخرين إذا كان الإله كامل ورحمن ورحيم وكريم ورؤوف فلماذا خلق كل

هذه الشرور فى العالم المرض والشيخوخة والموت والزلزال والبركان والميكروب والسم والحر والزمهرير وآلام السرطان التى لا تعفى الطفل الوليد ولا الشيخ الطاعن ؟ إذا كان الله محبة وجمالاً وخيراً فكيف يخلق الكراهية والقبح والشر ؟

ونحن نقول أن الله كله رحمة وكله خير وأنه لم يأمر بالشر ولكنه سمح به لحكمة بالغة ولكنه مع ذلك من رحمته الواسعة جعل الخير هو القاعدة السائدة فى الكون والشر هو الإستثناء ، فالصحة هى القاعدة والمرض استثناء فنحن نقضى معظم سنوات عمرنا فى صحة ولا يزورنا المرض إلا أياماً قليلة ، وبالمثل الزلازل هى فى مجملها بضع دقائق فى عمر الكرة الأرضية الذى يحصى بآلاف أو ملايين السنين وكذلك البراكين وكذلك فإن الحروب هى تشنجات قصيرة فى حياة الأمم بين فترات سلام طويلة ممتدة .

ثم إننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الشر نفسه له وجه خير فالمرض يخلف وقاية ، والألم يربى الصلابة وقوة التحمل ، والزلازل تنفس عن الضغط المكبوت فى داخل الكرة الأرضية وتحمى القشرة الأرضية من الإنفجار وتعيد الجبال إلى مكانها كأحزمة وثقالات تثبت القشرة الأرضية فى مكانها ، والبراكين تنفث المعادن والثروات الخبيئة الباطنة وتكسو الأرض بتربة بركانية خصبة ، والحروب تدمج الأمم وتلقح بينها وتجمعها فى كتل وأحلاف ثم فى عصبة أمم ثم فى مجلس أمن وأعظم الإختراعات خرجت أثناء الحروب كالبنسلين والذرة والصواريخ والطائرات النفاثة كلها خرجت أثناء الحروب ، كما أن المرض يخلف مناعة والميكروب نصنع منه المصل .

ولو لا أن أجدادنا ماتوا لضاقت علينا الأرض واستحالت المعيشة وانتشرت المجاعة ولما كنا الآن فى مناصبنا التى كان يشغلها قبلنا أناسٌ آخرون . والشر فى الكون كالظل فى الصورة إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص فى الصورة ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة إكتشفت أنه ضرورى ولا غنى عنه وأنه يؤدى وظيفة جمالية فى البناء العام للصورة .

وهل كان يمكننا أن نعرف الصحة لولا المرض ؟ .

إن الصحة تظل تاجاً على رؤوسنا لا نراه ولا نعرفه إلا حينما نمرض .

وبالمثل ما كان ممكناً أن نعرف الجمال لولا القبح ولا الوضع الطبيعى لولا الوضع الشاذ،ولهذا يقول الإمام أبو حامد الغزالى إن نقص الكون عند من يرون ذلك هو عين كماله مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته ولو أنه استقام لما رمى النبال .

وهناك وظيفة أخرى للمشقات والآلام وهى أنها تميز بين الناس وتكشف معادنهم وتعرف فى أوقات الشدة الصديق من العدو ودرجة إخلاص الصديق ، وهى الامتحان الذى نعرف به أنفسنا والإبتلاء الذى تتحدد به مراتبنا عند الله .

ثم إن الدنيا كلها ليست سوى فصل واحد من رواية سوف تتعدد فصولها فالموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها ولا يجوز أن نحكم على مسرحية من فصل واحد ولا أن نرفض كتاباً لأن الصفحة الأولى لم تعجبنا ، الحكم هنا ناقص ولا يمكن استطلاع الحكمة إلا فى آخر المطاف .

ثم ما هو البديل الذى يتصوره السائلون الساخرون ؟ هل يريد الإنسان أن يعيش حياة بلا موت ، بلا مرض ، بلا شيخوخة ، بلا نقص ، بلا عجز ، بلا قيود ، بلا أحزان ، بلا آلام ؟! ، هل يطلب كمالاً مطلقا ؟ إن الكمال المطلق لله وحده .

معنى هذا أن الإنسان لن يرضيه إلا أن يكون هو الله ذاته وهو التطاول بعينه . ودعونا نسخر منهم بدورنا ممن لا يعجبهم شيء .

هؤلاء الذين يريدونها جنة ، ماذا فعلوا ليستحقونها جنة ؟ يكفرون بربهم ويتنكرون لنعمائه ويبارزونه بالمعاصى ثم يشترطون عليه ألا يصيبهم بأذى ولا مكروه .

إن أجدادنا السابقين أكثر ذكاءً من هؤلاء المعاصرين حينما قالوا « خيرُ من الله شرُ من نفوسنا » ، ومعنى هذا أن الله يمدنا بالخير ولكننا نقلب الخير شراً والله يعطينا النعمة ولكننا نقلبها إلى نقمة .

إنها كلمات قليلة ولكنها تلخيص أمين للمشكلة كلها فالله أرسل الرياح وأجرى النهر ولكن ربان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب القدر ، وهل ظلمه الله ؟ الله أرسل الرياح رخاء وأجرى النهر خيراً ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذى قلب هذا الخير شراً فما أصدقها من كلمات جميلة طيبة « خير من الله شرُ من نفوسنا » .

والدكتور مصطفى محمود لم يقصد من وراء هذه العبارة الأخيرة أن الله قدر الخير ولم يقدر الشر وأن الخير من عند الله والشر من عند غيره كما يقول متأخرى القدرية ، وإنما قصد نفس مادل عليه قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ٧٩ ـــ النساء ، وهذا لا يتعارض مع كونه تعالى خالق للخير والشر معاً ومريداً لهما فلا يقع شيء منهما فى كونه إلا بإذنه ومشيئته وكلاهما قديم فى علم الله قدره الله قبل أن يخلق الخلق ، فالخير والشر مضافان إلى الله تعالى خلقاً وإيجاداً ومضافان إلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً .

يقول تعالى ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلُ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ٧٨ ـــ النساء .

إن الدكتور مصطفى محمود عندما استشهد بقول أجدادنا السابقين « خيرُ من الله شرُ من نفوسنا » إنما أراد بذلك أن الله أمد البشرية بالخير ولكنهم قلبوا الخير شراً ، إن أيادى البشر تتدخل فى الكون فتفسده فالمصانع تلقى بأدخنتها ومخلفاتها فى الجو والبحار فتلوثهما ، ومصانع ومستودعات الطاقة تنفجر أو يحدث لها تسرب فينبعث الإشعاع الذرى فيلوث كل شيء وينذر بالخطر ، والبترول يتم تسريبه عمداً أو خطأً فى مياه البحار فينجم عن ذلك مخاطر وأضرار على الأسماك وسائر الحيوانات البحرية والبرية والطيور فيتعرض الكثير منها للموت والهلاك ويلحق الضرر بمصالح الناس ، والنفايات المشعة تدفن فى باطن الأرض فتتعرض للتلوث البيئى ويتضرر من يعيشون فوقها ، كما أدت التجارب والتفاعلات الذرية والنووية والكيماوية إلى إفساد وتمزق طبقة الأوزون التى تقلل من حرارة الشمس وتحمى الغلاف الجوى للكرة الأرضية من الآثار السيئة لأشعة الشمس فأصبحت البشرية بذلك عرضة للمخاطر والأضرار ، كل ذلك وغيره يؤدى إلى تلوث الهواء والبحار والأنهار واليابس ويهدد الحياة الفطرية من حيوانات ونباتات بالهلاك أو الانقراض بل ويهدد الإنسان نفسه ، وكم من حيوانات بحرية أو برية قد انقرضت ، وكم من أشجار وغابات قد اقتلعت ، وكم من أراضى زراعية خضراء قد أهملت وتحولت إلى أراضى بور قاحلة . ومع التقدم العلمى تحول الهدوء الذى أودعه الله هذه الطبيعة إلى صخب وضوضاء وارتفعت نسبته إلى درجة تهدد البشرية وتضر بأجهزة الجسم العصبية وغير العصبية وتكسب

الإنسان نوعاً من القلق والتوبر وغيرها من المتاعب .

وأخيراً أسلحة الدمار الشامل التى تهلك الحرث والنسل وتأكل الأخضر واليابس يقول تعالى ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ٤١ ـــ الروم .

ونجد كثيراً من الناس قد وهبهم الله عقولاً وأجساداً سليمة وصحيحة ولكنهم أفسدوها بتعاطى المخدرات والمسكرات وممارسة الرذيلة وعصوا ربهم بمخالفة أوامره وإتيان ما نهى عنه من المحرمات فأصبحوا عرضة للأمراض الفتاكة التى تودى بحياتهم .

وصدق تعالى إذ يقول ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ٤٤ ـــ يونس ، كما صدق من قال « خير من الله شر من نفوسنا » .

الباب الرابـع

تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بقضية الجبر والإختيار

هناك أمور وحقائق يجب على الإنسان معرفتها والتسليم بها حتى لا يلتبس عليه فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بقضية الجبر والإختيار فيظن خطأً أن الإنسان العاصى مجبر على معاصيه ومجبر بالتالى على أن يلقى مصيره المحتوم وهو دخول النار ظلماً ، وهذه الأمور والحقائق سنفردها فيما يلى :

المبحث الأول

إن علم الله سابق لقضاء الله وقدره وخلقه للأشياء ، وهذه حقيقة بديهية لأن العلم شأن الحكمة والقدرة والإرادة جميعها صفات لله تعالى قديمة بقدم الله ودائمة بدوامه وباقية ببقائه فهو كان ولم يزل عليماً حكيماً قديراً فعالاً لما يريد إذ لا يتصور الإله بدونها .

أما القضاء والقدر والخلق فهى أثر من آثار هذه الصفات الإلهية أى أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء وأوجدها واستحدثها من العدم ، ولا يمكن للأثر أن يسبق الذات كما لا يمكن للمخلوق أن يسبق الخالق ولا للموجود أن يسبق الموجد .

إنطلاقاً من هذه الركيزة فإن من واجبنا التسليم والإعتقاد بأن الله عز وجل كان يعلم قديماً منذ الأزل ما سيفعله العباد مختارين من خير أو شر قبل أن يكتب أقدارهم ، وبناء على ذلك جاءت أقدار العباد وفق ما يعلمه الله فكتب لهم أقدارهم قبل أن يخلقهم ،.قدَّر للعبد أنه سيؤمن وقدَّر للآخر أنه سيكفر ، قدَّر لعبده أنه سيطيعه بصلاة أو بزكاة أو بحج أو بصلة رحم أو بإحسان إلى العباد أو بغير ذلك من أبواب الخير ، وقدَّر للآخر أنه سيعصيهَ بقتل أو بسرقة أو بزنا أو بظلم أو بقطيعة رحم أو بغير ذلك من أبواب الشر .

الكل قديم فى علم الله فمن المحال أن يفاجىء العبد ربه بما لا يعلمه ، من أجل ذلك فإن كل ما سيفعله العبد منذ ولادته حتى مماته مطابق لما قدره الله له قبل خلقه وفق علمه السابق .

والدليل على أن الله عز وجل كتب المقادير عن علم سابق قوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ١٢ ـــ فصلت ، وكما قدر الله للعباد أفعالهم الإختيارية فإنه أيضاً قدر عليهم ما يصابون به من أقدار إجبارية حتى قيام الساعة من أرزاق وأعمار ومصائب وأمراض وابتلاءات بالخير والشر فتنة لهم ، وكذلك قدر ما سيكون وما هو كائن فى هذا الكون بمشيئته إلى قيام الساعة .

ونظراً لأن كاتب هذه الأقدار ومحددها هو الله العليم الحكيم الخبير فإنه قد أحدث توازناً وانسجاماً لا تعارض فيه بين الأقدار التى رسمها لعباده والأقدار التى رسمها للكون بأكمله وأيضاً بين أقدار العباد الإختيارية وأقدارهم الإجبارية فى هذه الحياة الدنيا حتى قيام الساعة ، فالعبد قدر له فى علم الله أنه سيرتكب جريمة قتل باختياره فيترتب على ذلك قدر إجبارى لكل من القاتل والمقتول ، أما المقتول فلأنه قُتل وأما القاتل فلأنه قد يعاقب بجريمته فى الدنيا فيقتل أو يسجن ويتغير مسار حياته ، إضافة إلى ما يلحق بأهل كل من القاتل والمقتول من الضرر من جراء تلك الجريمة ، وما يقال عن القتل يقال أيضاً عن غيره فالإنسان يخطو باختياره خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس فالكون حلقات متشابكة والأفعال الإختيارية متخللة بين الأفعال الإجبارية ، كما أن إختيار العباد ومشيئاتهم داخلة فى إطار ومجال المشيئة الإلهية الكبرى لا تخرج عنها ولا تتعارض معها فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن ولا يعزب عن علمه ظاهر ولا خاف والذى قدر الأقدار بمشيئته فما لم يشأ الله لم يكن وما شاء كان دون تعارض بيده مقادير ومقاليد وتدابير كل شىء .

قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ٢٥١ ـ البقرة .

وقال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم .

وقال ﷺ « أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » رواه مسلم ، وقال رسول الله ﷺ « أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » رواه الترمذى وأبو داود .

المبحث الثانى

إن الله عز وجل عندما قدر للعباد أقدارهم قبل أن يخلقهم جعل أقدارهم الإجبارية ومصائرهم بعد الموت وأماكنهم من الجنة أو النار مترتبة على أعمالهم ونواياهم وعقائدهم وفق ما يعلمه الله أنه سيكون منهم فى دار الدنيا وهذا هو معنى قول النبى ﷺ « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار » متفق عليه .

وفى رواية أخرى « ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة و النار » رواه مسلم ، وفى رواية أخرى « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » متفق عليه

وقد ذكرت كل رواية من هذه الروايات أن رسول الله ﷺ سئل أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فيجيبهم رسول الله ﷺ بقوله « اعملوا » فدل ذلك على أن أقدار العباد ومصائرهم إلى الجنة أو إلى النار مترتبة على أعمالهم التى تصدر منهم باختيارهم ولو كانوا مكرهين على ما قدر عليهم من الجنة أو النار لوافقهم رسول الله ﷺ على الإتكال على ما كتب وقدر عليهم إذ أن العمل فى هذه الحالة لن يفيد ولن يغير مما أكرهوا عليه من الأقدار شيئاً ولكن دعوة رسول الله ﷺ لهم بالعمل دليل على أن العمل يفيد وله دخل مباشر فى تحديد أقدارهم ومصائرهم ، ومع ذلك فإن ما سيقدمونه من العمل حتى مماتهم معلوم ومكتوب ومقدر قبل خلقهم ، وبالتالى فإن أقدارهم الإجبارية ومصائرهم المترتبة على هذه الأعمال معلومة لله ومدونة قبل أن يخلقهم فحينما شرع الله فى خلقهم كان يعلم أثناء خلقه لهم قدر كل مخلوق منهم ومصيره إلى الجنة أو إلى النار وكان قبل ذلك قد خلق الجنة وخلق النار فكأنه بذلك قد خلق للجنة أهلها وخلق للنار أهلها وهذا هو معنى قول النبى ﷺ « إن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً » رواه مسلم .

وفى رواية أخرى « إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » رواه مسلم .

وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم « قيل يارسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم » ، وأيضا ما أخرجه الإمام مسلم (قال سراقة بن مالك يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم ، أفيما جفت الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما نستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرتْ به المقادير ، قال ففيم العمل ؟ قال « اعملوا ») .

إن الله يعلم مصير كل إنسان ومكانه من الجنة أو النار كما أن أعمال العباد معلومة ومكتوبة ومقدرة وهذه جميعها أمور بديهية لابد أن يقرها ويعتقدها كل عبد مؤمن بعظمة الإله الخالق وبأن الله هو علام الغيوب وأن علمه قد تخطى حواجز الزمان فتساوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل وعلم ما كان وما يكون وما سيكون من عبده وما ذاك إلا لأنه هو خالق الزمان والمكان ، وعنصر المفاجأة لا يجوز فى حق الله فمن المحال أن يفاجىء العبد ربه بما لا يعلمه فالإله لا يعلم من بعد جهل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالعبد لا يأتى بجديد بل الكل قديم فى علم الله ، وليس معنى أن الله عز وجل يعلم أعمال العباد ومصائرهم أنه أجبرهم على الإتيان بهذه الأعمال التى تقودهم إلى الجنة أو النار رغماً عنهم فالله لا يظلم أحداً من خلقه .

إن العبد لا يعرف المصير الذى قدره الله له ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه لتتداركه رحمة الله وفضله ويفوز بالجنة فإذا التمس الوسيلة التى أرادها الله منه وهى الإيمان والعمل الصالح بلغ مصيره الذى قدره الله له وهو دخول الجنة ، أما إذا التمس الوسيلة التى نهاه الله عنها وهى الكفر والفسوق والعصيان بلغ مصيره الذى قدره الله له وهو دخول جهنم أعاذنا الله منها .

إن قدر الله فى عبده يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه لأن الله قد خلق له القدرة على توجيه نفسه إلى الخير أو الشر فعلينا أن ننفق طاقتنا فى آداء ما كلفنا به وأن ندع لله غيب مشيئته فينا واثقين بأن الله تعالى لا يظلم أحداً من خلقه .

المبحث الثالث

يقول ﷺ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه مسلم .

والتيسير معناه أن الله عز وجل يسمح للإنسان أن يفعل الخير أو الشر بكامل حريته واختياره دون إكراه ، وهو فى إختياره هذا لا يخرج عما قدره الله له وما خلقه من أجله ، وتيسير الله لعبده هو عين مشيئته سبحانه وهو أمر لا بد منه لوقوع الحدث لأنه لا شيء يحدث فى ملكوت الله إلا باذن الله ومشيئته فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وشتان فى المعنى بين التيسير والتسيير فلو قيل « كل مسير لما خلق له » لفهم معنى إجبار الإنسان وإلزامه كرهاً على فعل الخير أو الشر ، فالإنسان لا يزال يقدم على فعل الخيرات وييسره الله لذلك حتى إذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما قدمت يداه ثم أدخله الجنة فكان مخلوقاً لها .

والإنسان لا يزال يقدم على فعل المعاصى وييسره الله لذلك حتى إذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما قدمت يداه ثم أدخله جهنم فكان مخلوقاً لها .

فكأن الإنسان يحدد لنفسه ما خلق من أجله بما يفعله بكامل حريته واختياره من أعمال ييسره الله على الإتيان بها ليكون من أهل الجنة أو من أهل النار . ونجد هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ ٥ — ١٠ — الليل ، وأيضا قول النبى ﷺ « فأما من كان من أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء » رواه مسلم ، وكلمة (اعملوا) فى الحديث النبوى تبين ضرورة العمل وأهميته فى تحديد مصير الإنسان الذى خلق ليكون من آهل الجنة أو من أهل النار ، ولو لم يكن العمل سبباً لذلك لما أشار إليه رسول الله ﷺ آمراً فى مستهل حديثه . وانطلاقاً من القاعدة التى نحتكم إليها بأن ما يقدمه الإنسان من خير أو شر هى أقدار إختيارية أما

ما يترتب على هذه الطاعات والمعاصى فهى أقدار إجبارية يحسن أن نشير تأكيداً لهذا المعنى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ ١٦ ــ الإسراء ، فمعصية مترفى أهل هذه القرية لله وعدم تنفيذهم ما أمرهم به هى أقدار إختيارية ، أما ما يترتب على هذه المعصية من الخراب والدمار الشامل الذى شمل القرية بأسرها فهو قدر إجبارى واقع لا محالة .

ويشير إلى حتمية هذا الحدث قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ فحق عليها القول ﴾ . ودليلنا على أن دمار القرى قدر إجبارى قوله تعالى فى آية آخرى ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ ٥٨ ــ الإسراء .

ولكن حتمية هذا القرار الإلهى لم يأت ظلماً أو عنوة أو جزافاً بل جاء مترتباً على معصية علمها الله قبل أن تحدث ودليلنا على ذلك قوله تعالى ﴿ ومـا كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ١١٧ ــ هود .

قال ﷺ « كل يعمل لما خلق له » وفى رواية « كل يعمل لما يسر له » رواه مسلم .

أى كل يعمل باختياره المطلق ما يسره الله له فإن كانت أعماله صالحة وهو مؤمن دخل الجنة خالداً مخلداً فيها فكان مخلوقاً لها ، وإن كانت أعماله غير صالحة وهو كافر دخل النار خالداً مخلداً فيها فكان مخلوقاً لها ، أما المسلم العاصى فإنه لا يخلد فى النار بل يخرج منها برحمة الله إلى الجنة فيكون من أهلها . والسبب الذى من أجله كان مخلوقاً للجنة أو للنار أن الله عز وجل علم بالغيب ما سيكون من اختيار العبد وأفعاله وعقيدته فمن كان عمله صالحاً فى علم الله وهو مؤمن كان مخلوقاً للجنة ، ومن كان عمله سيئاً فى علم الله وهو كافر كان مخلوقاً للنار .

المبحث الرابع

إن الله عز وجل خلق البشر وألهمهم التقوى والفجور وعرفهم طريق الإيمان من الكفر وطريق الخير من الشر وطريق الحق من الباطل بأن خلق لهم عقولاً وأسماعاً وأبصاراً وأفئدة وأنزل إليهم الرسالات السماوية ليعرفوا مراد الله منهم وليتبين لهم سبيل الهدى والرشاد الذى يوصلهم إلى مرضاة الله ودخول الجنة من سبيل الكفر والضلال الذى يوصلهم إلى سخط الله ودخول النار ، وأمدهم بالإرادة والقدرة على الإختيار والتوجه ناحية الخير أو الشر لينظر ماذا يعملون .

والدليل على أن الإنسان مخير فى أعماله أن الله عز وجل بعد أن ذكر أنه خلق الناس على صنفين منهم الكافر ومنهم المؤمن ختم الآية بقوله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ليبين أن ذلك تم بسبب أعمالهم واختيارهم وذلك فى قوله تعالى ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ ٢ ــ التغابن ، فلو أن الله عز وجل خلقهم ليكونوا كفاراً جبراً ويدخلون النار وخلق الآخرين ليكونوا مؤمنين جبراً ويدخلون الجنة لما قال فى ختام الآية الكريمة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ ــ الكهف ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إن مشيئة الله قضت ألا يترك الناس دائمين على ما هم عليه حتى يمتحنهم ويبتليهم بالشر والخير فتنة لهم ، وأمام هذا الإبتلاء ينقسم الناس إلى ثلاث طوائف :

(أ) **الطائفة الأولى** : يفسدها إنقلاب حالها من العسر إلى اليسر ومن الضراء إلى السراء ومن الشر إلى الخير فهم يكفرون بنعمة الله ويطغون على عباد الله ويعرضون عن ذكر ربهم يظنون بذلك أنهم قد استغنوا عن ربهم ثم يعيثون فى الأرض فساداً ويرتكبون المعاصى وينتهكون الحرمات ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ ٦ ، ٧ ــ العلق

﴿ وإذا مس الناس ضرُ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق

منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ٣٣ ، ٣٤ ــ الروم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه ﴾ ٥١ ــ فصلت .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ ١٢ يونس .

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ ٨ ــ الزمر .

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ ٥٠ ــ فصلت .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكرٌ فى آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ ٢١ ــ يونس .

﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ ٢١ ــ المعارج .

(ب) **الطائفة الثانية** : يفسدها إنقلاب حالها من اليسر إلى العسر ومن السراء إلى الضراء ومن الخير إلى الشر فهم يسخطون على قضاء الله وقدره ويقنطون من رحمة الله ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ ٩ ــ هود .

﴿ وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ ــ الروم .

﴿ وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ ٤٨ ــ الشورى .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾ ١٦ ــ الفجر .

﴿ لا يسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾ ٤٩ ــ فصلت .

﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ ٨٣ ــ الإسراء .

﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ ٢٠ المعارج .

(جـ) **الطائفة الثالثة** : هى طائفة المؤمنين لا يتزعزع إيمانهم بربهم إذا انقلبوا من حال إلى حال فهم شاكرون فى السراء ، صابرون فى الضراء ، راضون بقضاء الله وقدره ، هؤلاء هم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لاحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

من أجل ذلك فقد قضت مشيئة الله ألا يترك العباد حتى يبتليهم بالشر والخير فتنة قال تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ ــ ٣ العنكبوت ، وقال تعالى ﴿ كل نفسٍ ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ ــ الأنبياء ، والجنة هى سلعة الله الغالية لا يدخلها إلا من كان أهلاً لها ، من ابتلاه الله فثبت على إيمانه ورضى بقضاء الله وقدره لأنها دار النعيم المقيم التى أعدها الله للمتقين من دخلها فلا يخرج منها أبدا ، ويحيا فلا يموت أبدا ، ويسعد فلا يشقى أبدا ، ويأمن فلا يخاف أبدا ، لا يصيبه مرض ولا هرم ولا يمسه تعب ولا جوع ولا عطش ، أعد الله فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هى دار الكرامة من دخلها فقد فاز ومن حرمها فقد خسر وخاب .

قال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ ــ آل عمران .

إن الله عز وجل يرفع بهذا الإبتلاء أقواماً ويضع آخرين يدل على ذلك قوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ ــ الأعراف .

والله عز وجل له أن يبتلى من يشاء من عباده ولم يظلم من فشل فى الإبتلاء منهم فأدخله النار لأنه لم يجبره على الكفر والمعصية بل جعله يتعامل مع الإبتلاء بكامل إرادته وحريته واختياره ، قال ﷺ « إن الله منَّ على قومٍ فألهمهم الخير فأدخلهم فى رحمته ، وابتلى قوماً فخذلهم وذمهم على أفعالهم ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم وهو عادل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فينزل عليه الإبتلاء من ربه فى

آخر عمره فيسخط فى الضراء ويتنكر لله فى السراء فيدخل النار ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فينزل عليه الإبتلاء من ربه فى آخر عمره فيرضى بقضاء الله وقدره ويصبر فى الضراء ويشكر فى السراء فيدخل الجنة .

ما سبق أن أوضحناه هو تفسير للمعانى الواردة فى هذه المجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، قال رسول الله ﷺ :

« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذارع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » متفق عليه .

« إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » رواه مسلم .

« الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » رواه البخارى .

« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » رواه مسلم .

والحديث الأخير قد يتحقق معناه لأسباب أخرى غير الإبتلاء ، منها أن الرجل قد يعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ولكنه قد يكون مرائياً أو منافقاً أو مناناً أو نوى به نفعاً دنيوياً قاصداً بذلك ثواب الدنيا وليس ثواب الآخرة فحينئذ يعامله الله على نيته وقلبه مما لا يعلمه الناس فيكون من أهل النار ، أما الآخر فقد يعمل أعمالاً تبدو للناس فى ظاهرها أنها من أعمال أهل النار الشريرة ولكنه قصد بها أن يصلح بها أمراً أو يدرأ بها شراً أو يمنع بها ضراً أو يرفع بها ظلماً مما لا يعلمه الناس فعامله الله على نيته وقلبه فكان من أهل الجنة .

كما تجدر الإشارة إلى أن القاعدة الرئيسية أن من عمل بعمل أهل الجنة يختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها ومن عمل بعمل أهل النار يختم له بعمل أهل النار

فيدخلها ، أما ما ورد فى الأحاديث سالفة الذكر فهى أحوال نادرة واستثنائية تقع للبعض من الناس وليس للأغلبية منهم أراد النبى ﷺ أن يذكرها حتى يبين لأمته أن الأعمال بخواتيمها حتى لا يتكلوا فى آخر عمرهم على ما قدموه طيلة حياتهم من أعمال صالحة فالمؤمن يجب أن يقضى حياته كلها فى طاعة ربه بين الخوف والرجاء ولا يستكثر أعماله الصالحة حتى يقبضه الله على ذلك .

وهناك أمور أخرى غير الابتلاء تصلح لأن تكون تفسيراً لتغير خاتمة عمل العبد فى نهاية عمره فالدعوة المستجابة والتوبة النصوحة وترك الكفر إلى الايمان فى نهاية العمر كل منها قد يكون سبباً فى أن تختم له أعماله الشريرة فى الدنيا بعمل أهل الجنة فيدخلها وكذلك إذا ألهمه الله ووفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه ففعله دون ابتلاء ختم له بهذا العمل الصالح فدخل الجنة .

أما الآخر الذى عمل طوال حياته بعمل أهل الجنة فربما صدرت منه الفاحشة فى آخر حياته دون ابتلاء وهو لا يعلم أن أجله قد حان فيمت على تلك المعصية قبل أن يتب أو لعل الله اطلع على قلب هذا الرجل الذى عمل طوال عمره بعمل أهل الجنة فوجد قلبه فاسدا ونيته فاسدة وعقيدته فاسدة كمن عبد ربه بجهل أو داوم على بدعة أو أخفى فى قلبه شركاً أصغراً أو كان ممن يصدقون الكهنة ويأتون السحرة أو كان ممن ينكرون القدر كله أو بعضه أو يخفون فى صدورهم حقداً وحسداً ومع ذلك فهم يعملون بعمل أهل الجنة فيختم الله لهم بعمل أهل النار فيدخلونها وما كان الله ليظلمهم ولكنهم هم الظالمون .

وتجدر الإشارة إلى أن من ختم حياته الدنيا بالمعاصى وكان موحداً فإنه يدخل النار فيمكث فيها ما شاء الله له أن يمكث ثم يدخل الجنة ، ولا يخلد فى النار إلا الكافر .

وقد روى الإمام مالك فى موطأه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ قال : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح

ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون .

عندما مسح الله عز وجل ظهر آدم عليه السلام بيمينه واستخرج منه ذريته منهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار لم يكن ذلك عشوائياً بل فعله الله عن علم وتقدير سابق ، وكما أسلفنا فإن علم الله وتقديره لأفعال العباد سابق للخلق وبناء على ذلك فإن الله جل شأنه وقت خلقه لهم كان يعلم من منهم من أهل الجنة ومن منهم من أهل النار وفقاً لما يعلمه الله عن أعمالهم وعقائدهم ، معنى ذلك أنه خلق بعضهم للجنة وخلق البعض الآخر للنار لأن مصائرهم معلومة له سبحانه قبل أن يخلقهم .

أما قول النبى ﷺ « وبعمل أهل الجنة يعملون » وقوله « وبعمل أهل النار يعملون » أى سيعملون وفق ما يعلمه الله عن أعمالهم ، وهذا القول مشابه لقول النبى ﷺ حينما سئل عن أطفال المشركين من يموت منهم صغيراً هل يدخلون الجنة أو النار ؟ قال رسول الله ﷺ « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » رواه مسلم ، أى أن الله وقت أن خلقهم كان يعلم ما سيأتون به من الأعمال لو أمد لهم فى آجالهم ، فعلم الله بما سيختاره عبده من الأعمال لا يستلزم أن يبقيهم فى الدنيا أحياء ليباشروا تلك الأعمال والدليل على ذلك قوله تعالى لنبيه نوح عليه السلام ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ ٣٦ ــ هود ، وكذلك دعوة نوح على قومه بعد أن أطلعه الله على الغيب فعلم أنهم لا يؤمنون قال تعالى ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾ ٢٦ ــ نوح .

فبرغم أن الله عز وجل أهلك مع قوم نوح أطفالهم الذين لم يبلغوا العلم ولم يمهلهم حتى يمارسوا تجربتهم مع الإيمان إلا أنه سبحانه كان يعلم أنه لو أمهلهم لاختاروا الكفر على الإيمان .

وأيضا الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام بأمر من الله أمام نبى الله موسى عليه السلام كان لحكمة وهى أن أبويه مؤمنين وقد علم الله أنه لو كبر لأرهقهما طغياناً وكفرا فأراد الله أن يبدلهما من هو خيراً منه .

نستنتج من ذلك أن الله عز وجل علم قبل أن يخلق عبده ماذا سيختار من الأفعال حتى ولو أماته قبل أن ينفذها ، وحتى لو لم يخلقه فى الأصل فالله عز وجل علم أفعال هؤلاء العباد ولكنه لم يأذن لها بالوقوع فلم تحدث إذ أنه لا شىء يقع فى الكون إلا باذن الله ومشيئته ، أما سبب إبقاء الله لعباده أحياء فى أغلب الأحيان لتصدر منهم أعمالهم بعد موافقة الله وإذنه فهى لإقامة الحجة عليهم فلا يقولون أنهم لو تركوا أحياء لما صدرت منهم كل هذه المعاصى . مما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل لو أنه خلق خلقاً فأدخله الجنة مباشرة وخلق خلقاً آخر فأدخله النار مباشرة لم يك ظالماً بل كان عليماً حكيماً إذ لا يحتاج علم الله إلى تركهم فى الحياة الدنيا ، ومن هنا يتبين لنا معنى قوله تعالى فى الحديث السابق (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم على العباد والدليل على ذلك أن الآية الكريمة لا تحمل معنى إجبار من حق عليه العذاب من ذرية آدم على الكفر والإشراك والهلاك فى نار جهنم والآية الكريمة هى الأصل أما الحديث النبوى فهو مجرد شارح لها فلا ينبغى لأحد أن يفهم الحديث النبوى بعكس ما نصت عليه الآية الكريمة . إن الآية الكريمة تعطى الدلالة على أن الله عز وجل استخرج من آدم عليه السلام ذريته من قبل أن يخلق أجسادهم ربما كأرواح أو أنفس لا أحد يعلم إلا الله ، المهم أنهم على هيئة لا يحجبها شىء عن الإيمان الفطرى الذى أودعه الله إياها فهم فى حضرة الرب جل وعلا وإيمانهم به بلغ أقصى درجات اليقين فهم يستشعرون أثر ربوبيته فيهم ويدينون إليه بالولاء والعبودية ، ويعلم الخالق نقاء الفطرة الإيمانية فيهم وتيقنهم من ربوبيته لهم فيشهدهم على ذلك لا على سبيل اختبارهم ومعرفة إجابتهم بالنفى أو الإثبات ، وإنما على سبيل الإقرار بما هو معلوم ومتيقن لديهم جميعاً ولذلك جاء سؤال الرب لهم بهذه الصيغة « ألستُ بربكم ؟ » فأجابوه مذعنين موقنين « قالوا بلى شهدنا » لأنهم كما أسلفنا يستشعرون آثار ربوبيته فيهم وهم فى حضرة الرب جل وعلا يخاطبهم ويتجلى عليهم بأنوار ربوبيته ويخاطبونه بنفس الفطرة الإيمانية التى سيخلقهم عليها فى دار الدنيا ، هذه الفطرة التى قال عنها رسول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » متفق عليه ، وهى أيضا التى ذكرها الله تعالى فى كتابة الكريم بقوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ٣٠ — الروم .

ثم أنبأهم ربهم بعد أن أقروا بربوبيته لهم ، أنهم سيواجهون فى حياتهم الدنيا بعد سن الإدراك والبلوغ مجموعة من الحواجز والحجب تحجب عن هذه الأرواح والأنفس ايمانها الفطرى بربها أو تطفىء جذوته إلا من رحم الله ، وهذه الحجب هى متطلبات الجسد وشهوات النفس ، ومفاتن الدنيا وزينتها ومشاغلها ، ووسوسة الشيطان وغوايته لهم ، فعليهم أن يحذروا لأنهم سيمتحنون فى إيمانهم ، ثم أشهدهم بهذا الإقرار على أنفسهم حتى لا يأتون يوم القيامة كفاراً فيبررون كفرهم بأن هذه الحجب قد أنستهم ايمانهم الفطرى بربهم وجعلتهم فى غفلة عما سبق أن أقروا به من الربوبية لله رب العالمين ، أو أن يقولوا بأن آباءهم قد أشركوا فهم على آثارهم مقتدون وهذا أيضا مرجعه الغفلة بفعل هذه الحجب التى حجبت عنهم هذا الإيمان الفطرى فجعلتهم يتبعون آباءهم فى الشرك وهم المسؤولون عن غفلتهم لأنهم استمعوا إلى وسوسة الشيطان وغوايته فاتبعوا شهوات النفس وانشغلوا بمتطلبات الجسد وماديات الحياة وجروا يلهثون وراء مفاتن الدنيا وزينتها وشهواتها ، ولو أنهم أطاعوا الله وانشغلوا بعبادته واجتنبوا مانهاهم عنه والتزموا بالمنهج القويم الذى رسمه الله لهم لصاروا فى منأى عن هذه الحجب ولظلوا على ما هم عليه من الإيمان الفطرى وحينئذ لا تأخذهم الغفلة ولا يؤثر فيهم إشراك آبائهم لأنهم سيهتدون إلى معرفة الخالق بهذه الفطرة الإيمانية السليمة التى أودعها الله فيهم وصانوها ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى الحياة حيث نجد كثيراً من الشباب ابتلاهم الله بآباء فاجرين كافرين ولكنهم اتبعوا طريقاً مخالفاً لطريق آبائهم .

إذا مات ابن آدم انكشفت عنه هذه الحجب التى حجبت ايمانه الفطرى وسببت له الغفلة فعاين الحقيقة ورآها رأى العين وتكشف له كل شيء ولكن للأسف بعد فوات الأوان فلن ينفعه إلا ايمان سابق فى هذه الحياة الدنيا .

يقول تعالى ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ٢٢ ــ ق .

إن الله عز وجل بهذا الإقرار الذى أخذه من ذرية آدم يكون قد أخذ عليهم أول عهد وأول ميثاق وحملهم أول أمانة ولكن أغلبهم للأسف لم يكونوا جديرين بالوفاء ولا بحمل الأمانة وصدق تعالى إذ يقول ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض

والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ ٧٢ ـ الأحزاب ، وقال تعالى ﴿ واوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ٣٤ ـ الإسراء ، وربما يتساءل أحد ، ما الحكمة من هذه القصة مادمنا لا نتذكر شيئاً من أحداثها ؟ للإجابة على هذا السؤال نقول بأن الله عز وجل أراد أن يقص علينا ما نسيناه من إقرارنا على أنفسنا بأن الله هو ربنا وأننا سنسأل عن هذا الإقرار والعهد الذى أخذه علينا لكى نتدبر أمرنا من الآن ، كما أراد أن يبلغنا بأننا مفطورون على الإيمان بالله وأن يحذرنا من اتباع الشهوات التى تحجبنا عن هذا الإيمان الفطرى وتسبب لنا الغفلة ، كما أراد أن ينبئنا وفق علمه الغيبى بأن الكافرين منا سيختلقون الأعذار يوم القيامة فى محاولة منهم للتخلص من مسئوليتهم عن هذه الغفلة ، وأن هذه الأعذار لن تقبل منهم ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن ما ارتكبوه من الكفر والمعاصى تم بإرادتهم واختيارهم فلم يكن الله ليجبرهم على الكفر بعد أن فطرهم على الإيمان ، ولم يكن الله ليظلمهم ولكنهم هم الظالمون .

نعود إلى موضوعنا الأصلى بشأن تقدير أعمال العباد فنقول بأن الله عز وجل قدر لكل عبد رزقه وأجله وهما من الأقدار الإجبارية التى تمت بمشيئة الله وحده وغير مترتبة على أفعال العباد ، كما قدر له مكانه من الجنة أو النار وهذا مع كونه قدر إجبارى تم أيضا بمشيئة الله وحده إلا أنه مترتب على أفعال العبد فمن آمن وعمل صالحاً كان من أهل السعادة ومن كفر وعصى كان من أهل الشقاء ، كما قدر له عمله وفق علمه السابق بما سيفعله العبد بكامل حريته واختياره ، فهو قدر إختيارى لمشيئة العبد دخل فيما يأتى به من الأعمال بجانب مشيئة الله التى سمحت وأذنت لهذه الأعمال أن تقع فلا شيء يقع فى الكون إلا باذن الله ومشيئته .. وجميع هذه الأقدار الإجبارية والإختيارية للعبد وهى رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد كتبها الله وقدرها على عبده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فإذا أصبح العبد مضغة فى بطن أمه أرسل الله إليه ملكاً فينفخ فيه الروح ثم يؤمر بكتابة رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد وفق ما هو معلوم لله ووفق ما هو مقدر ومكتوب ومدون فى أم الكتاب أو اللوح المحفوظ ، وليس معنى أن الله حدد للعبد عمله وهو فى بطن أمه أنه أجبره على الإتيان بهذا العمل ولكن الله حدد له عمله بناء على علمه السابق بما سيفعله العبد مختاراً . ما سبق ذكره يعد توضيحاً لمعنى قول النبى ﷺ :

« إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

المبحث الخامس

إن خلق الجنة والنار تم بمشيئة الله وحده وخلقهما منفصل تماماً عن أفعال العباد وغير مترتب عليه شأنه شأن خلق السموات والأرض وما بينهما ، أما دخول العباد إلى الجنة أو دخولهم إلى النار فانها تمت بمشيئة الله وحده الذى له الحق فى أن يحدد الثواب والعقاب لمن أطاعه أو عصاه ولكنها مترتبة على أفعال العباد لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ومن كفر وعصى ربه دخل النار .

ولقد أخذ الله على نفسه العهد أن يملأ الجنة ويملأ النار فأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة حتى تمتلىء ، وأما النار فليس معنى أن الله يملأها أنه يجبر عباده على دخولها فقد سبق أن بينا أن من روائع قدرة الله إحداث انسجام بين الجبر والإختيار وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الإختيارية بحيث لا توجد تناقضات بين الأثنين وبحيث يتلاقيان معاً فى النهاية فى خط واحد ، فالله عز وجل يعلم من يستحق دخول النار من عباده بسبب معاصيهم قبل أن يخلقهم وقدر عددهم فى فترة زمنية معينة هى عمر الدنيا حتى قيام الساعة بما يتناسب مع سعة جهنم ومع ذلك فإن جهنم بعد أن يضع الله فيها جميع الكفار الذين كتب عليهم الخلود تقول هل من مزيد ولا تمتلىء إلا إذا وضع الرب فيها قدمه ، ومن هنا يتبين لنا أن الله عز وجل لم يظلم أحداً من خلقه عندما شاء أن يملأ النار .

قال الله تعالى ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأتى وتقول هل من مزيد ﴾ ٣٠ ـــ ق ، وقال تعالى لابليس ﴿ فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ٨٤ ، ٨٥ ـــ الزمر ، وقال تعالى ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ١٣ ـــ السجدة ، وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ١١٩ ـــ هود ، وكلمة (أجمعين) فى هذه الآيات الكريمة معناها (مجتمعين) .

وقال عليه الصلاة والسلام (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك «أى

اكتفيت وامتلأت » ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة) رواه البخارى .

وقال عليه الصلاة والسلام « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم فقال الله تعالى للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما علىَّ ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تعالى قدمه فتقول قط قط ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً » رواه الشيخان والترمذى .

ولنتمعن فى قول رسول الله ﷺ « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » بعد أن أخبر بامتلاء النار .

المبحث السادس

إن الله عز وجل وعد عباده ألا يظلمهم وحرم الظلم على نفسه ولكنه لم يعط وعداً لعباده أن يساوى بينهم فى العفو والفضل فهو سبحانه يعفو عمن يشاء ويتفضل على من يشاء لأن العبد إذا أذنب وعصى ربه ثم سامحه الله وعفا عنه فإنما يسامح فى حق من حقوقه لأنه سبحانه هو المقصود بالطاعة واجتناب النواهي خوفاً منه ورجاء لما عنده كما أنه مالك الملك يتفضل منه على من يشاء من عباده يقول تعالى ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٤ ــ الجمعة .

من أجل ذلك فإن الله عز وجل لا يقتصر فضله على عبده المؤمن فى أنه يأذن له بأن يفعل الخير ، ولكنه أيضا يلهمه ويوفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه أو يحفظه من إتيان الفواحش والمنكرات ، فإن قال العبد الآثم ولماذا لم يوفقنى إلى ما وفقه إليه من العمل الصالح ولم يحفظنى مما حفظه منه ؟ قيل له وهل ظلمك فى شىء ؟ إنه بين لك طريق الخير وطريق الشر ثم تركك تختار بحريتك وكامل إرادتك ما تشاء ولم يجبرك على شىء فاخترت طريق الشر ، فالله عز وجل عاملك بما تستحق ولكنه عامل من أحبه وأراد له الخير بمقتضى فضله لحكمة يعلمها سبحانه .

ويصدق هذا المثل على رجلين يبعثان يوم القيامة قد أسرفا على أنفسهما فيأخذ الله أحدهما بذنبه ويعفو عن الآخر لحكمة يعلمها ، فالله هنا لم يظلم عبده الأول بل عامله بما يستحق أما الثانى فقد عامله بمقتضى فضله ، والدليل على ذلك قوله تعالى عن دعاء الملائكة لربهم للمؤمنين ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ٩ ــ غافر .

ووقاية الله لهم من السيئات فى الدنيا أن يحفظهم من فعل المنكرات والفواحش وإذا وقاهم الله منها فى الدنيا فقد رحمه يوم القيامة من عواقبها ، وقد يقى الله عبده المؤمن من بعض سيئاته يوم القيامة بأن يعفو عنها ويتجاوز عن عواقبها يدل على ذلك ما أخبر به رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يرخى ستره على عبده المؤمن يوم القيامة فيذكره بذنوبه ذنباً ذنباً حتى إذا ظن أنه قد هلك قال له الله تعالى قد سترتها عليك فى

الدنيا واليوم أسترها عليك إذهب فقد غفرت لك .

وكذلك قصة الرجل الذى مات موحداً ولكنه لم يفعل خيراً قط غير أنه كان تاجراً يقرض الناس ويمهل المعسر أو يتجاوز عنه فقال الله له نحن أولى بذلك منك فتجاوز عن سيئاته وأدخله الجنة ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

وكذلك جميع من ختمت أعماله فى الدنيا بعمل من أعمال أهل الجنة وكان موحداً فإن الله يبعثه يوم القيامة على ماامات عليه من العمل الصالح ويدخله الجنة فإن دخلها فلا يخرج منها أبدا ، ومعنى ذلك أن الله عز وجل يعفو عن سيئاته التى قدمها قبل ذلك ، وكذلك فإن الله عز وجل يعفو عن سيئات المسلم العاصى الذى ارتكب صغائر الذنوب والآثام فيغفرها له ، يقول تعالى ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ﴾ ٣١ ، ٣٢ ــ النجم .

لقد أشار الله عز وجل فى الآيتين السابقتين إلى أنه يجزى المسيئين بما عملوا أى بما يستحقون دون أدنى ظلم عليهم ولكنه يجزى المؤمنين المحسنين الذين يراقبون ربهم ويخافونه كأنهم يرونه ويعلمون أنه يراهم فى جميع أحوالهم فيستحون منه أن يراهم على معصية فيجتنبون كبائر الإثم والفواحش خوفاً من الله وحياء منه يجزيهم بإحسان أعظم من احسانهم فيغفر لهم ما يرتكبونه من اللمم أى صغائر الذنوب والآثار وهذه رحمة كبيرة من الله أن يقيهم سيئات أعمالهم ويدخلهم الجنة .

وكذلك العبد التائب إذا قبل الله توبته غفر الله له وتجاوز عن سيئاته لقول النبى ﷺ « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وأيضا الكافر الذى أسلم ثم مات غفر الله له جميع ذنوبه حتى لو امتلأت بها الأرض أو بلغت عنان السماء .

مما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ولم يظلم من استحقوا العذاب من الكفار والعصاه وهذا هو المفهوم الذى يجب أن يعتقده ويطمئن إليه كل إنسان ، أما الفضل فهو بيدى الله لا يمنحه لعبادة بالتساوى بل يؤتيه لمن يشاء من عباده وبدرجات متفاوتة ، والله عليم بقلوب من تفضل عليهم وتقوى نفوسهم وسلامة فطرتهم وأعمالهم التى كانوا سيعملونها لو أمد فى آجالهم أو تغيرت ظروفهم فى هذه الحياة الدنيا ، يعلم ظاهر أمرهم وباطنه ، ويعلم أنهم أكثر استحقاقاً لفضل

الله من غيرهم ولـذلك فضل الله نبيـه محمـد ﷺ بالرسالة الخاتمة وقـال له فى محكـم كتابه ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ ١١٣ ــ النساء .

والدليل على أن الله يعطى فضله الدينى عن علم وليس جزافاً أو عشوائياً وأنه عليم بمن يتفضل عليه قوله تعالى ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٧٣ ، ٧٤ ــ آل عمران ،

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً يعطى الدلالة على أن الله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ولكنه فى نفس الوقت لا يساوى بينهم فى الفضل ، قال رسول الله ﷺ « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال فمن يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا لا قال إنما هو فضلى أوتيه من أشاء ».

وبالمثل قوله تعالى فى الحديث القدسى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر » رواه مسلم ، فالزيادة فى الحسنات وغفران السيئات من باب الفضل والمعاملة بالمثل فى السيئات من باب العدل وعدم الظلم . وكذلك قول النبى ﷺ فيما رواه عن ربه « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » رواه الشيخان وتختلف مضاعفة الحسنات باختلاف الأشخاص ودرجة إخلاصهم لله كما أن لله فى بعض المناسبات والأماكن والأوقات والليالى والشهور نفحات ، فمضاعفة الحسنات من باب الفضل واستبدال السيئات حسنات لمن هم بها ولم يعملها أو لمن عملها ثم تاب عنها من باب الفضل أيضا ، أما من جاء بالسيئة فعوقب عليها بسيئة مثلها فهذا من باب العدل وعدم الظلم .

ونفس هذه المعانى نجدها فى قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ ١٦٠ ــ الأنعام ، ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ ٢٦١ ــ البقرة ، ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ٢٤٥ ــ البقرة ، ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ٢٥ ــ الشورى ،

والعبد فى دار يتقبل الله منه إيمانه وتوبته عن كبائر الإثم والفواحش جميعها حتى الشرك بالله يدل على ذلك أواخر سورة الفرقان ويبدل الله سيئاته حسنات ، أما بعد الممات فإن العبد إذا جاء يوم القيامة مشركاً فلا يغفر الله له هذا الشرك أما عباده الموحدين فإنه يغفر لمن يشاء منهم جميع ذنوبهم أو بعضها مهما عظمت ويعذب من يشاء منهم على ما اقترفوه من هذه الذنوب العظام يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ ٤٨ ــ النساء فأما الكافر والموحد اللذان لم يغفر الله لهما فقد عاملهما بما يستحقان دون أن يظلمهما ، وأما الموحد الذى غفر له ووقاه سيئاته فقد رحمه وتفضل عليه .

المبحث السابع

مما يثير الدهشة والعجب أن يعتقد بعض الناس أن الله عز وجل يجبر الكفار والعصاه على كفرهم ومعاصيهم مما يستوجب معه دخولهم النار ، وهذا كذب وافتراء على الله للأسباب الآتية :

أولاً : لأنه يتعارض مع العقل والمنطق فمن المحال أن يعاقبهم الله على معاصى أجبرهم على الإتيان بها ، كما أنه يتعارض مع مقتضيات العدل الإلهى إضافة إلى تعارضه مع نصوص الشريعة الإسلامية وجميع الشرائع السماوية التى تحمل الإنسان مسئولية عمله .

ثانياً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصى يتعارض مع الغاية التى من أجلها خلق الله العباد قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ٥٦ ـــ الذاريات . فكيف يخلق الله عباده ليؤدوا وظيفة العبادة ثم يجبرهم على الكفر والمعصية ؟ .

ثالثاً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصى يتعارض مع ما يحبه الله فالله عز وجل يحب المؤمنين الطائعين العابدين الذاكرين لله كثيراً والمستغفرين بالليل والنهار وأشد ما يكون فرحاً إذا رجع إليه عبده تائباً من المعاصى ، وكلما تقرب إليه عبده بالفرائض والنوافل كلما ازداد تقرباً إليه بالمحبة والمغفرة والرحمة . وفى المقابل فإن الله يكره الكفر والفسوق والعصيان ويذم أهله فكيف يجبرهم الله على عكس ما يحبه ؟ أيجبرهم على شيء يسخط عليه ويبغضه ؟ قال تعالى ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ ٧ ـــ الزمر .

رابعاً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصى يتعارض مع رحمة الله التى وسعت كل شيء فمن المحال أن يبعد عن رحمته أحداً من خلقه إلا إذا كان مستحقاً لذلك ، وكما أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة فإنه كذلك حرم على نفسه الظلم ، ومعلوم أن الإجبار على الكفر والمعاصى ظلم فادح فسبحان الله وتعالى عن الظلم علواً كبيراً .

خامساً : لأن إجبار العباد على الكفر والمعاصى وتعذيبه إياهم لن ينفعه كما أن

إدخالهم الجنة لن يضره فالله هو الغنى الحميد ، ولولا أنهم استحقوا دخول النار ما أدخلهم إياها ، يقول تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ ١٤٧ ـــ النساء ، ويقول تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ٧٧ ـــ الفرقان .

سادساً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصى يتعارض مع إرادة الله التى قضت بأن يترك للإنسان الحرية فى العقيدة وأن يختار ما يشاء من الأعمال وخلق له القدرة والإرادة على توجيه نفسه ناحية الخير أو الشر دون إكراه بعد أن بين له طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر ثم يحاسبه على ما قدمت يداه وما اعتنقه من عقيدة ، قال تعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ ٢٥٦ ـــ البقرة .

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ ـــ الكهف .

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ٩٩ ـــ يونس .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ٤٦ ـــ فصلت .

مما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل من المحال أن يجبر عبده على الكفر والمعصية ثم يعذبه على ذلك للأسباب التى ذكرناها سلفاً .

والذى ينبغى على الإنسان أن يعتقده أن الله عز وجل لو أراد أن يجبر عبده على شىء لأجبره على الإيمان والطاعة لأنه يتفق مع ما يحبه الله ومع رحمته الواسعة ومع الغاية التى خلق الإنسان من أجلها ، تماماً كما أجبر ملائكته والكون بأكمله عدا الإنس والجن على طاعته وعبادته وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ ١٨ ـــ الحج .

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا ﴾ ٤٤ ـــ الإسراء .

فالله عز وجل لو أراد أن يجبر عبده على شيء لأجبره على الإيمان والطاعة ولكنه من المحال أن يجبره على الكفر والمعصية ومصداق ذلك من كتاب الله قوله تعالى :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ﴾ ٩٩ ــ يونس .

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هداها ﴾ ١٣ ــ السجدة .

ولفظ (لو) فى الآيتين السابقتين تعطى الدلالة على أن مشيئة الله لم تتدخل لهداية الناس جميعاً وحملهم على الإيمان والطاعة ولكن لا يمنع ذلك من وجود حالات فردية تدخلت فيها مشيئة الله لهداية أشخاص معينين أراد الله لهم الخير والهداية .

ولنضرب على ذلك أمثلة بما أجراه الله على يد نبيه ﷺ من معجزات كالشاب الذى جاء لرسول الله ﷺ يطلب منه أن يأذن له فى الزنا ثم بعد أن كلمه رسول الله ﷺ وضع يده ﷺ على قلب الشاب ودعا له فذهبت الرغبة المحرمة من قلبه ولم يجد فيه أثراً مما كان يشعر به وانقلبت مشاعره فصار الزنا أبغض شيء إلى نفسه ، وأيضا الرجل الذى كان يحمل فى قلبه كفراً وبغضاً شديداً لرسول الله ﷺ ورفع سيفه يريد أن يقتل رسول الله ﷺ فأصابه برق كاد أن يخطف بصره ووقع السيف من يده فاستدعاه رسول الله ﷺ وأبلغه ما كان من أمره وما كان يحمله فى قلبه فأسلم الرجل ونطق بالشهادتين ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على قلب الرجل ودعا له فذهب ما كان به من الكفر والبغض لرسول الله ﷺ فما كان أحد من البشر أحب إلى قلبه من رسول الله ﷺ .

وكذلك من دعا له رسول الله ﷺ بالهداية مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستجاب الله لنبيه ﷺ وهدى عمر إلى الإيمان والهدى والمحبة لرسول الله ﷺ رغم ما كان عليه من شدة الكفر والفسوق والكراهية لرسول الله ﷺ ، وكذلك كل من ألان الله قلبه فآمن بنبيه فى عصر النبوة أو بما أنزل على نبيه بعد عصر النبوة .

ومن الأمثلة أيضاً أن يسخر الله لعبده من الأسباب ما يترتب عليه تغيراً فى قلبه فينقلب من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهداية ، وهذه لها صور مختلفة ففى عهد الأنبياء والرسل كانت المعجزات الظاهرة تؤدى إلى التحول المفاجىء السريع فى قلوب من أراد الله لهم الخير ، ومن الصور الأخرى أن يسخر الله لعبده رجلاً صالحاً

يدعوه إلى الله أو حدثاً عظيماً يمر به يكون سبباً فى هدايته أو رؤية منامية من عند الله تخرجه من ضلاله وكفره وتعيده إلى الرشد والإيمان أو أن يلهمه عملاً صالحاً يقبضه عليه فتختم أعماله بهذا العمل الصالح فيدخل الجنة .

والله عز وجل لا يمنح فضله لمن يشاء من عباده جزافاً أو عشوائياً ولكن يمنح فضله عن علم فهو عليم بقلوب من تفضل عليهم وتقوى نفوسهم وسلامة فطرتهم وأعمالهم التى كانوا سيعملونها لو أمد فى آجالهم أو تغيرت ظروفهم فى هذه الحياة الدنيا ، يعلم ظاهر أمرهم وباطنه ويعلم أنهم أكثر استحقاقاً لفضله من غيرهم يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٧٣ ، ٧٤ — آل عمران .

وكذلك قوله تعالى ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ٥٤ — المائدة . وتجدر الإشارة إلى أن حمل الله لعبده على الهداية والإيمان تفضلاً عليه ورحمة به وإرادة له بالخير لا تعد إكراهاً ولا تتعارض مع قوله تعالى ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ، وذلك لأن الله إذا حمل عبده على الهداية والإيمان فإنه لا يحمله كرهاً بل يحبب ذلك إلى قلبه مصدقاً لقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ ٧ — الحجرات .

وذلك لأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله يقلبها ويصرفها كيف يشاء ، فالعبد إذا آمن واهتدى بمشيئة الله وفضله فإنه لا يدخل فى الإيمان والهداية وهو كاره بل يدخل فيهما عن حب واقتناع .

أما إذا أراد عبد أن يحمل عبداً آخر على الإيمان والهداية جبراً دون إرادة الله ومشيئته فإنه يكرهه على ذلك فيدخل فى هذا الأمر كارهاً مكرهاً يظهر الإيمان والهداية تخوفاً ممن حمله على ذلك ويبطن فى قلبه ما كان عليه من الكفر والفسوق فقلوب العباد ملكاً لله وحده لا يستطيع العبد أن يغير من قلب عبدٍ آخر إلا أن يشاء الله ، ولذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ويقول له ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ ٥٦ — القصص ، ويقول له ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ ٦٣ الأنفال .

المبحث الثامن

إن الإنسان قدر له فى علم الله أن يختار بمحض إرادته وحريته بين الإيمان والكفر وبين الخير والشر وبين الطاعة والمعصية فقدر الله له بناء على ذلك مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار فكأنه اختار بمحض إرادته ما قدر له من الجنة أو النار .

وبمعنى أكثر شمولاً يمكن القول بأن الإنسان قدر له فى علم الله أن يختار بمحض إرادته وحريته أموراً ترتب عليها ما قدر له ، وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان إحاطة كاملة قبل وبعد الإختيار دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم .

عليه يمكن القول أن آدم عليه السلام حين عصى ربه وأكل من الشجرة ، وابليس حين عصى ربه ورفض السجود لآدم ، إنما اختارا بحريتهما ما قدر لهما . وهنا يظهر الإنسجام بين ما اختاره العبد بحريته وما قدره الرب لعبده جبراً ليس من ارتكابه للمعصية ولكن من أمور ترتبت على ارتكابه للمعصية كالنزول إلى الأرض ، وإنجاب الذرية ، وبعث الأنبياء والمرسلين بالشرائع والرسالات السماوية ، وتفاقم الصراع بين الحق والباطل حتى قيام الساعة ، وما يستتبعه من حساب وجنة ونار ، وكلها كما نعلم أقدار إجبارية قدرها الله عز وجل قبل أن يخلق آدم وإبليس .

وهذه الأقدار الإجبارية لم تكن إلزاماً لآدم وإبليس بأن يقترفوا المعصية ولكنها كانت أقداراً إجبارية تعلقت بأمور ترتبت على وقوع المعصية ، أما وقوع المعصية فى ذاتها فإنها كانت قدراً إختيارياً إختاراها آدم وابليس بكامل حريتهما دون جبر أو قهر .

والله عز وجل لم يجعل معاصى العباد ضمن الأقدار الإجبارية ولكن جعلها ضمن الأقدار الإختيارية ، كما أنه قضى بأن يكون الحساب والجنة والنار حقائق حتمية ضمن الأقدار الإجبارية ولكنه لم يجعل الأشقياء والسعداء من خلقه الذين يساقون إلى الجحيم أو يفوزون بالجنة خاضعين للأقدار الإجبارية بل جعلهم خاضعين للأقدار الإختيارية حيث يعلم الله ما سيكون من اختيار العباد قبل أن يخلقهم ويأذن لهذا

الإختيار أن يخرج إلى حيز الوجود .

فى حديثنا عن آدم وإبليس يمكن القول أنه قدر لهما فى علم الله أن يختار المعصية وهذا هو القدر الإختيارى ، كما أنه بسبب هذا الإختيار بلغا ما قدر لهما من أمور ترتبت على المعصية وهذا هو القدر الإجبارى .

كما يمكن القول بطريقة أكثر شمولاً أنه قدر لهما أن يختار أموراً ترتب عليها ما قدر لهما باعتبار القدر الأول إختيارياً والقدر الثانى إجبارياً وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان قبل وبعد الإختيار دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم .

المبحث التاسع

يقول تعالى ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾ ٧٨ ، ٧٩ ـــ النساء .

هذه الآيات الكريمة يختلف تفسيرها تبعاً لنوعية المصائب المذكورة فقد تكون مصائب قدرية إجبارية وقد تكون مصائب قدرية إختيارية ولكنها جميعاً تتلاقى فى معنى واحد ومفهوم واحد وهو تنزيه الله عنْ الظلم ونفى الظلم على الإنسان والإعتراف بقدرة الله النافذة وإحاطته بكل الأمور .

ففى حالة التفسير الأول يمكن القول بأن هناك نوع من المصائب القدرية الإجبارية يصيب الله بها بعض عباده إنتقاماً منهم على ظلمهم وطغيانهم وتكبرهم فى الأرض وتمردهم على معصية الله ، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، ونفس هذا المعنى نجده فى قوله تعالى ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ ١٦٥ ـــ آل عمران ، وأيضاً قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ٣٠ ـــ الشورى .

فبرغم أن هذه المصائب أقدار إجبارية من عند الله إلا أنها بسبب ما قدمت أيديهم من معاصى وظلم وآثام .

والقاعدة التى نحتكم إليها دائماً أن ذنوب العباد ومعاصيهم ليست أقداراً إجبارية وإنما هى أقدار إختيارية ، أما ما يترتب على معاصى العباد من لعنة الله وسخطه عليهم وانتقامه منهم وإلحاق المصائب بهم فهى أقدار إجبارية بلا ريب ، وليس بين هذين النوعين من القدر أدنى تعارض أو تناقض بل يتلاقيان معاً فى إنسجام تام وهذا من براعة قدرة الله تعالى :

وإذا كان انتقام الله من أهل الكفر والفساد وإلحاق الضرر بهم فى بعض شئون حياتهم الدنيا هما من الأقدار الإجبارية فإن القاعدة العامة التى تقتضيها سنة الله تعالى أنه يبسط الرزق ويجزل النعم والعطاء للناس أجمعين المؤمنين منهم والكافرين بما يصلح من شئون حياتهم الدنيا وهذه أيضاً من الأقدار الإجبارية وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ .

والمنفعة والضرر مرجعهما إلى الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿ قل كل من عند الله ﴾ . أما التفسير الثانى لهذه الآيات الكريمة باعتبار أن المصائب المذكورة ضمن الأقدار الإختيارية التى تولدت بسبب سوء اختيار الإنسان وسوء استخدامه لما فى أيديه من امكانيات وطاقات يمكن القول بأن الأمور كلها خيرها وشرها بمشيئة الله وإرادته وأن الخير والشر لا ينبغى لهما الحدوث فى ملك الله إلا بعد موافقة الله وإذنه وإلا ما حدثا ، فمعنى « قل كل من عند الله » أى قل كل بمشيئة الله وإرادته .

ثم بين الله عز وجل أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما مرجعه إختيار الإنسان بمحض إرادته دون إجبار أو إكراه ولكنه يوضح أن جانب الخير وإن كان باختيار الإنسان إلا أن التوفيق والفضل فيه يعود إلى الله الذى بين للإنسان طريق الخير من الشر ووهبه نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد وأعانه على الهدى والصلاح ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نسند ما يصيبنا من حسنة إلى الله عز وجل تصديقاً لقول الله تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ٥٣ النحل ، وقوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ١٨ ــ النحل .

وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ .

أما جانب الشر فهو من فعل الإنسان واختياره فإن أصابته سيئة فلا يلومن إلا نفسه ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ١١٨ ــ النحل ، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . ثم تختتم الآيات الكريمة ببيان أن ميزان الخير من الشر والمصباح المنير الذى ينير لنا طريق الخير ويميزه عن طريق الشر إنما هى الرسالات السماوية التى تتمثل فى بعث النبى ﷺ للناس رسولاً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فمن أطاعه واهتدى بهدى رسالته فقد اتبع طريق الخير ومن عصاه وأعرض عن رسالته فقد اتبع طريق الشر .

المبحث العاشر

يقول تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ ٦٨ ــ القصص .

قد يعتقد البعض أن هذه الآية الكريمة تتناقض فى المعنى مع المعانى التى أوضحناها فى قضية الجبر والإختيار ولكن لهذه الآية الكريمة معانى ومقاصد أخرى نجملها فيما يلى :

أولاً : إن الله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار لهم من القوانين والتشاريع والأحكام والنظم ما يصلح به شئون دنياهم وآخرتهم ، فالقرآن الكريم هو دستور المؤمنين يقرر لهم أحكام دنياهم كشئون الزواج والطلاق والميراث والقصاص وتحديد العقوبات والعلاقات والإجتماعية بين الأفراد والجماعات ، كما أنه يقرر لهم أيضاً أحكام آخرتهم من عبادات وغيبيات وأمور تتعلق بالحلال والحرام .

وقد وصف الله عز وجل من لم يحكم بما أنزل من الشرائع والأحكام بالكفر والظلم والفسوق فى ثلاث آيات من القرآن الكريم ولذلك قال تعالى موضحاً ذلك المعنى ﴿ ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾ ٣٦ ــ الأحزاب .

ثانياً : إن هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها تلقى الضوء على الأقدار الإجبارية التى يقدرها الله لعباده دون مشيئتهم واختيارهم كتحديد أعمارهم وأرزاقهم وسعادتهم أو شقائهم وأحجامهم وألوانهم وأشكالهم وصحتهم أو سقمهم ، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف أن الله عز وجل يرسل ملكاً إلى عبده وهو جنين فى بطن أمه فيكتب له أجله ورزقه وشقى أو سعيد وذكر أو انثى ، ولعل تلك الحقيقة تدخل ضمن قوله تعالى ﴿ ويعلم مافى الأرحام ﴾ ٣٤ ــ لقمان .

ثالثاً : هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها قد ألقت الضوء على نوع من الإختيار

يتم فيه المفاضلة على أساس الخير فقط وذلك لأن هذه الآية قد جاءت مسبوقة بآية تتحدث عن المؤمنين دون غيرهم من سائر الناس حيث يقول تعالى فى الآية السابقة لها مباشرة ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ ٦٧ ـــ القصص .

فالله عز وجل قد اختار الأمة الإسلامية وجعلها خير أمة أخرجت للناس واختار نبيها وجعله أفضل الأنبياء واصطفاه من بنى هاشم المصطفاه من بنى كنانة المصطفاه من ولد اسماعيل المصطفى من ولد إبراهيم فهو ﷺ خيار من خيار من خيار .

والله عز وجل قد اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، والله قد فضل بعض النبيين على بعض وكان فضل الله على نبينا عظيما .

والله قد اصطفى مريم إبنة عمران على نساء العالمين واختار بنى إسرائيل وفضلهم على العالمين بأن منحهم متاع الحياة الدنيا وجعل من ذريتهم النبوة وأنزل إليهم التوراة والإنجيل فلما عصوه اختار عليهم العرب وفضلهم عليهم وجعل منهم خاتم النبيين وأفضلهم أجمعين محمد ﷺ على مقت وكره من بنى إسرائيل وأيده بخير الأديان وأفضل الكتب السماوية وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

والله قد اختار الكعبة المشرفة قبلة للمسلمين خاصة وجعلها أفضل بقاع الأرض ، واختار المسجد الحرام وجعله أفضل مساجد الأرض وأقدمها ، واختار مكة المكرمة وفضلها على سائر البلدان وجعلها أم القرى .

والله تبارك وتعالى قد خلق الأشهر واختار وفضل من بينها شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، وخلق الأيام واختار وفضل من بينها يوم الجمعة وجعله عيداً للمسلمين ، وخلق الليالى واختار وفضل من بينها ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر وأنزل فيها القرآن الكريم ، وخلق الأوقات واختار وفضل من بينها مواقيت الصلوات الخمس ، وخلق القرون واختار وفضل من بينها القرن الذى فيه محمد ﷺ وأصحابه وجعله خير القرون فى تاريخ البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ « صدق الله العظيم » .

الباب الخامس

الفصل الأول

الإبتلاء

إن الله عز وجل خلق الإنسان وأودعه هذه الأرض ليبتليه وجعل الدنيا دار ابتلاء ، قال تعالى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ٢ ــ الملك . وقال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » رواه مسلم .

لقد ألهم الله تبارك وتعالى النفس البشرية فجورها وتقواها وعرَّفها طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر بما أنزله من الكتب والرسالات السماوية ، وخلق للإنسان السمع والبصر والفؤاد لتعينه على ذلك ، وخلق له الإرادة والقدرة على الإختيار وتوجيه نفسه إلى الخير والطاعة والإيمان أو توجيهها إلى الشر والمعصية والكفر ، ثم تركه وشأنه يختار أيهما شاء دون جبر أو إلزام ثم يحاسبه يوم القيامة على ما قدمت يداه بمحض إرادته واختياره إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

لقد قضت مشيئة الله أن يبتلى عباده بين حينٍ وآخرٍ بالسراء والضراء على امتداد حياتهم الدنيا لحكم عديدة نذكر منها :

١ – إن درجة إيمان العبد وثباته على عقيدته تظهر عند ابتلائه ، فكم من الناس من يدعى الإيمان بلسانه فإن أصابه البلاء تعرت سريرته وانكشف حقيقة ما فى قلبه فيظهر المكنون جلياً واضحاً فى تصرفاته وعلى لسانه فينفضح أمره ، فإما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً فيما كان يدعيه من الإيمان . يقول تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ ــ ٣ العنكبوت ، ويقول تعالى ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ ١٥٤ ــ آل عمران ، ويقول تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ١٤١ ــ آل عمران .

٢ – من الناس من يزيدهم البلاء إيماناً وثباتاً على العقيدة وصبراً على قضاء الله وقدره ، يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ويجاهدون شهوات النفس وهم فى ذلك صابرين محتسبين ، صابرين على طاعة الله وعلى اجتناب ما نهى الله عنه وعلى ما يصيبهم من الأذى فى سبيل إعلاء كلمة الله والرضا بقضاء الله وقدره .

يقول تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ ـــ آل عمران .

ويقول تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ ١٥٥ ـــ ١٥٧ البقرة

٣ – إن الله عز وجل قد يبتلى عباده الكفار أو العصاه بالشر والخير لعلها تكون سبباً فى هدايتهم بأن توقظ ضمائرهم وتحيى الإيمان الفطرى فى أعماقهم ، فلعل الأحداث التى تمر بهم والشر الذى يصيبهم يشعرهم ذلك بأنه من فعل الله الذى يراقبهم وينتقم منهم على كفرهم وجرمهم وظلمهم لأنفسهم وللآخرين فيعتبرون ويتعظون ويرجعون عن كفرهم وبغيهم أو يتركون معاصيهم ويتقربون إلى الله بالطاعات

ولعل الخير يكون سبباً فى هدايتهم أو إقلاعهم عن المعاصى إذا شعروا بأن هذه النعم وهبها لهم إله كريم قادر غنى عنهم يبارزونه بالكفر والمعصية فيصبر عليهم ويرزقهم ويحسن إليهم ولو شاء لأهلكهم فيخجلون ويعتبرون ويتعظون ويتركون ما كانوا عليه من الكفر أو العصيان فيؤمنون بربهم ويستقيم أمرهم . إن حكمة ابتلاء العباد الذين ظلموا أنفسهم بالخير والشر ليرجعوا عن الكفر والمعاصى تتضح فى قوله تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ١٦٨ ـــ الأعراف .

أما إذا مر عليهم الإبتلاء فلم ينتبهوا إلى مراد الله منهم ولم يتوبوا ولم يتعظوا ولم يعتبروا وظلوا على ما هم عليه من الكفر والعناد وارتكاب المحرمات فإن الله عز وجل يستدرجهم ويفتح لهم أبواب الخير ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

يقول تعالى :

﴿ أولايرون أنهم يفتنون فى كل عامٍ مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون ﴾ ١٢٦ ــ التوبة .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ٥٥ ، ٥٦ ــ المؤمنون .

﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ ٩٤ ، ٩٥ ــ الأعراف .

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ ٤٢ ــ ٤٥ الأنعام .

٤ — إن الله عز وجل قد يبتلى عباده المؤمنين بالشر والخير لينظر أى الأمرين أحب إليهم الأهل والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن الطيبة وسائر مباهج الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ، أم الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه ومجاهدة النفس بالصبر على فعل الطاعات وترك المنكرات ؟ قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ٢٤ ــ التوبة .

وقال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيهن وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » متفق عليه .

فيمتحن فى محبته لله ورسوله ، وفى صدق محبته لأخيه المسلم لا يحبه إلا لله ، وفى قوة محبته للإيمان وكراهيته للكفر .

ولقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من أن تشغلهم أموالهم أو أولادهم أو أزواجهم عن ذكر الله أو أن يحبونهم أكثر من حبهم لله ولفعل الخيرات التى أمر الله بها أو أن يشغلونهم عن فعل الطاعات وترك المنكرات ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ٩ ـــ المنافقون .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ ١٤ ـــ التغابن .

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ ١٥ ـــ التغابن .

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب ﴾ ١٤ ـــ آل عمران .

٥ – إن الله عز وجل إذ أحب عبده المؤمن المذنب ابتلاء بالضراء تعجيلا لعقوبته فى الدنيا وتطهيراً له من الذنوب والخطايا أو رفعاً لدرجته ، بشرط أن يتحلى بالصبر ويرضى بقضاء الله وقدره .

وقد يبتليه بالسراء فيشكره بالقلب واللسان والعبادة والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين فيرفع الله درجته فى الجنة .

أما العبد غير المؤمن فإنه يبتلى بالضراء فيسخط على قضاء الله وقدره فيسخط الله عليه ثم يمسك الله عنه الضراء لأنه لم يستفد من هذا البلاء ولم ينتبه إلى مراد الله منه ولم يتعظ ولم يعتبر ولم يتب وظل على ما هو عليه من الإثم ، مثل هذا الشخص لا يطهره الله من ذنوبه بل ربما يستدرجه فيصيبه بالسراء فيتمادى فى معصية الله ويستزيد من الذنوب والخطايا حتى إذا كان يوم القيامة حوسب على ما قدمت يداه فباء بالخيبة والخسران . كل هذه المعانى نجدها فى هذه الأقوال للنبى ﷺ :

« ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

« إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى

فله الرضا ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى وقال حديث حسن .

« إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » رواه الترمذى .

﴿ عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

« ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها » متفق عليه .

« ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » متفق عليه .

مما سبق يتضح لنا بأن الله عز وجل لم يظلم عباده بما أصابهم به من البلاء وفتنة الخير و الشر لأن موقف العبد من البلاء يعود إلى إرادته وكامل حريته واختياره .

ويمكننا تلخيص الحكمة من الإبتلاء فى النقاط الآتية :

١ – إمتحان صدق إيمان العباد وثبات عقيدتهم وقوة محبتهم لله ولرسوله عما سواهما وتفضيل الآخرة على الدنيا .

٢ – تذكير الكفار والعصاه بربهم لعلهم يعتبرون ويتعظون ويتوبون فيكتب الله لهم الهداية .

٣ – تطهير المؤمن من الذنوب ورفع درجته فى الجنة واستدراج من لم يتعظ بالبلاء من الكفار والعصاه حتى يتمادى أحدهم فى ذنوبه فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ويحاسبه يوم القيامة على ما قدمت يداه .

٤ – هذا الإبتلاء يرفع أقواماً ويضع آخرين يدل على ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ ــ الأعراف ، إن العبد قد يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيبتلى فى آخر عمره فيسخط فى الضراء ويتنكر لله فى السراء

فيدخل النار ، وإن العبد قد يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيبتلى فى آخر عمره فيرضى بقضاء الله وقدره ويصبر فى الضراء ويشكر فى السراء فيدخل الجنة . وإذا أحب الله عبداً ألهمه ووفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه وييسر له أسباب الصلاح فإنما الأعمال بالخواتيم .

إن ما سبق ذكره يدخل ضمن المقاصد والمعانى التى اشتملت عليها هذه الأحاديث النبوية الشريفة ، قال رسول الله ﷺ :

« إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » رواه مسلم .

« الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » رواه البخارى .

« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » رواه مسلم .

« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » متفق عليه .

انقسام الناس إلى ثلاث طوائف عند الإبتلاء :

ينقسم الناس أمام الإبتلاء إلى ثلاث طوائف هى :

(أ) **الطائفة الأولى** : يفسدها إنقلاب حالها من العسر إلى اليسر ومن الضراء إلى السراء ومن الشر إلى الخير فهم يكفرون بنعمة الله ويطغون على عباد الله ويعرضون عن ذكر ربهم يظنون بذلك أنهم قد استغنوا عن ربهم ثم يعيشون فى الأرض فساداً ويرتكبون المعاصى وينتهكون الحرمات ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ ٦ ، ٧ ـــ العلق .

﴿ وإذا مس الناس ضرُ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق

منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ٣٣ ، ٣٤ — الروم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه ﴾ ٥١ — فصلت .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضرٍ مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ ١٢ — يونس .

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ ٨ — الزمر .

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذابٍ غليظ ﴾ ٥٠ فصلت .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكرٌ فى آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ ٢١ — يونس .

﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ ٢١ المعارج .

(ب) **الطائفة الثانية** : يفسدها إنقلاب حالها من اليسر إلى العسر ومن السراء إلى الضراء ومن الخير إلى الشر فهم يسخطون على قضاء الله وقدرَه ويقنطون من رحمة الله ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ ٩ — هود .

﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ — الروم .

﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ ٤٨ — الشورى .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾ ١٦ — الفجر .

﴿ لا يسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه فيئوسٌ قنوط ﴾ ٤٩ — فصلت .

﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ ٨٣ — الإسراء .

﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ ٢٠ ـــ المعارج .

(جـ) **الطائفة الثالثة** : هى طائفة المؤمنين لا يتزعزع إيمانهم بربهم إذا انقلبوا من حالٍ إلى حال فهم شاكرون فى السراء ، صابرون فى الضراء ، راضون بقضاء الله وقدره ، هؤلاء هم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

من أجل ذلك فقد قضت مشيئة الله ألا يترك العباد حتى يبتليهم بالشر والخير فتنة قال تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ ـــ ٣ العنكبوت ، وقال تعالى ﴿ كلُ نفسٍ ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ ـــ الأنبياء . والجنة هى سلعة الله الغالية لا يدخلها إلا من مكان أهلاً لها ، من ابتلاه الله فثبت على ايمانه ورضَىَ بقضاء الله وقدره ، لأنها دار النعيم المقيم التى أعدها الله للمتقين من دخلها فلا يخرج منها أبدا ، ويحيا فلا يموت أبدا ، ويسعد فلا يشقى أبدا ، ويأمن فلا يخاف أبدا ، لا يصيبه مرض ولا هرم ولا يمسه تعب ولا جوع ولا عطش ، أعد الله فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هى دار الكرامة من دخلها فقد فاز ومن حرمها فقد خسر وخاب .

قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ ـــ آل عمران ، إن الله عز وجل يرفع بهذا الإبتلاء أقواماً ويضع آخرين مصداقاً لقوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ ـــ الأعراف ، والله عز وجل له أن يبتلى من يشاء من عباده ولم يظلم من فشل فى الإبتلاء منهم فأدخله النار لأنه لم يجبره على الكفر والمعصية بل جعله يتعامل مع الإبتلاء بكامل إرادته وحريته واختياره ، قال ﷺ « إن الله منَّ على قومٍ فألهمهم الخير فأدخلهم فى رحمته ، وابتلى قوماً فخذلهم وذمهم على أفعالهم ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم وهو عادل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

الفصل الثانى

الـــرزق

« على ضوء قضية الجبر والاختيار ».

يجب أن نعلم أن العمـل ليس إلا وسيلـة وقربانـاً نتقـرب به إلى الله ليرزقنـا وليؤتينـا من فضله وعطائه ، فالعمل ليس هو رازقنا وإنما الرازق الحقيقى هو الله جل شأنه ، ومن أجل ذلك فإن العمل مطلوب والرزق مقدور ومكتوب ، وهذا هو المعنى الذى تتضمنه الحكمة القائلة : « الجوارح تعمل والقلوب تتوكل » ، فنحن نعمل ونبذل الجهد ونأخذ بالأسباب ولكننا فى عملنا هذا نتوكل على الله بقلوبنا ونتضرع إليه أن يقبل منا هذا العمل وأن يجعله عملاً مثمراً يأتى بالرزق منه سبحانه .

والعمل قد يثمر وقد لا يثمر ، ولكن سنة الله قد قضت فى كثير من الحالات ألا يصيب عبده بالرزق إلا إذا وجد منه العمل الجاد والأخذ بالأسباب ، فقد نهى رسول الله ﷺ عن القعود عن طلب الرزق ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولكى يبين الله لعباده أنه هو وحده الرازق وأن العمل ليس إلا وسيلة لطلب الرزق وأن إرادته ومشيئته لا تخضع للأسباب والمسببات نجد أن المزارع قد يعمل ويبذل الجهد آخذاً بالأسباب ، حتى إذا تمت الزراعة ونمى المحصول أصابته آفة حشرية أو إعصار أو فيضان فاقتلعه وهلك بأكمله ، ومرد ذلك أن الله لم يقدر له ذلك الرزق رغم عمله الشاق المتواصل ، أما الحكمة التى من أجلها فعل الله ذلك فلا يعلمها إلا هو سبحانه .

وعلى النقيض من ذلك ، قد نجد بعض البلاد ذات الشعوب الفقيرة التى لا تمارس إلا العمل المحدود فى بيئة صحراوية لا تعتمد إلا على رعى الماشية كمصدر للكسب الضئيل .... نجدها وقد تفجرت أراضيها بالبترول وأصبحت من أغنى شعوب العالم تعيش عيشة رغيدة مترفة .

ويصدق هذا المثل أيضاً على الرجل العاطل أو الفقير الذى يسوق الله إليه الرزق من الإرث فينقلب غنياً من الأغنياء ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ٢٦ ـــ الرعد .

ولقد ضرب الله لنا مثلا رائعاً بقصة هاجر مع ابنها إسماعيل عليه السلام عندما أخذت تسعى بين الصفا والمروة ، وكان لهذا السعى منزلته عند الله فجعله الله من شعائره ، وعلمنا من هذه القصة دروساً وعظات .

أول هذه الدروس التى تخدم قضية الرزق هو إيمان هاجر بأن الله هو وحده الرازق ، فحينما تركها زوجها إبراهيم عليه السلام وترك معها ابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام فى أرض عراء لا زرع فيها ولا نبات وعلمت أن الله متكفل برزقهما ، اطمئن قلبها ورضيت بهذا المكان مسكناً لها ولم يمسسها خوف أو ارتياب .

أما الدرس الثانى فهو الحث على طلب الرزق ، فبرغم إيمان هاجر بأن ربها هو الرازق ، وبرغم ثقتها الكاملة فى الله ، إلا أنها أخذت تسعى فى طلب الرزق مستخدمة كل الطاقات والإمكانيات والأسباب المتاحة لها ، فجوارحها تعمل وقلبها متوكل على الله ، أخذت تسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط طلباً للماء ، واثقة أن الله سيهديها إليه وينجيها وابنها من الهلاك .

أما الدرس الثالث فهو إثبات من الله بأنه هو وحده الرازق ولا رازق سواه ، فقد شاءت حكمة الله ألا يأتى الرزق نتيجة ما بذلته هاجر من سعى وعمل حتى لا يعتقد بعض الناس أن العمل هو الرازق ، أو أن الرزق هو النتيجة الحتمية للعمل ، فقد فجر الله ينابيع الماء من بين أصابع قدمى إسماعيل عليه السلام وهو حينذاك طفل رضيع لا حول له ولا قوة .

نستخلص مما سبق أن العمل مطلوب ولكنه ليس إلا وسيلة لطلب الرزق ، أما الرازق الحقيقى فهو الله جل شأنه ومشيئته لا تخضع للأسباب والمسببات .

وإلى الذين يعتقدون بأن العمل هو الرازق نسوق لهم هذا الحديث القدسى ، حيث يقول تعالى :

﴿ يا ابن آدم إن رضيت بما قسمت لك ، أرحت قلبك وبدنك ، وإن لم ترض بما قسمته لك ، فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها كركض الوحش فى البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندى مذموماً ﴾ .

أما الأدلة القرآنية التى تؤكد أن الرزق من عند الله وحده ، وأنه إجبارى لا اختيار فيه ، فهى قوله تعالى :

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ٢٦ ــ الرعد .

﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوا فى عتوٍ ونفور ﴾ ٢١ ــ الملك .

﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ٦ ــ هود .

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ ٦٠ العنكبوت .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ ٢ ــ فاطر .

أما الأدلة من السنة النبوية الشريفة فهى قول النبى ﷺ « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

وقد ورد عن النبى ﷺ : أن الله يرسل ملكاً لعبده وهو جنين فى بطن أمه ، فيكتب له رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .

قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

ومن أدعية النبى ﷺ قوله : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » متفق عليه .

كما أسلفنا فإن الرزق مقدور ومكتوب ومحدد وقد تكفل الله تعالى بأرزاق العباد ، ولكنه جل شأنه جعل لهذه الأرزاق أسباباً نذكرها فيما يلى :

١ – العمل والسعى والضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله وتحصيل الرزق ، يقول تعالى ﴿ وَآخَرونَ يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ ٢٠ ـــ المزمل ، ويقول تعالى ﴿ هو الذى جعل لكمْ الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ ١٥ ـــ الملك .

٢ - سعى الرجل على من يعول كوالديه وزوجه وأولاده ومن يحتاجون إليه من أقربائه وكذلكَ الإنفاق عَلِى طَالب العلم .

قال رسول الله ﷺ « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعطَ منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفاً » متفق عليه ، وقال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك » متفق عليه :

قال تعالى ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ ٧ ـــ الطلاق .

(كان أخَوَان على عهد النبى ﷺ وكان أحدهما يأتى النبى ﷺ « يتلقى العلم من مجلسه ﷺ » والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه للنبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : لعلك ترزق به) رواه الترمذى باسناد صحيح على شرط مسلم .

٣ – حسن التوكل على الله لقوله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » رواه الترمذى وقال حديث حسن وهذا الحديث فيه دعوة إلى العمل وعدم التكاسل والقعود عن السعى وطلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق ، فهى تسعى للبحث عن الرزق وقلبها مطمئن بالفطرة بأن الله سيرزقها مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ فى كتاب مبين ﴾ ٦ ـــ هود .

وكذلك الإنسان لو توكل على الله حق التوكل بأن سعى فى طلب الرزق آخذا بالأسباب وقلبه مطمئن بأن الله سيرزقه فإن حسن توكله على الله وحسن ظنه بربه سيكونان سبباً من أسباب الرزق .

٤ – الهجرة فى سبيل الله ، فإذا هاجر العبد فراراً بدينه من بلاد الكفر حتى لا

يفتن في دينه ويحارب في عقيدته يفتح الله له أبواب الرزق ، يقول تعالى ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ١٠٠ ـــ النساء .

٥ ـ الجهاد في سبيل الله ، والرغبة في الزواج من أجل التعفف ، ورغبة المكاتب في الأداء ليتحرر من الرق ، جميعها تعد من أسباب سعة الرزق

قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ ٣٢ ـــ النور .

وقال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » أخرجه الترمذى والنسائى

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى في سبيل الله » أخرجه أحمد والترمذى

٦ – تحول العباد من الكفر إلى الايمان يعد سبباً من أسباب سعة الرزق ، يقول تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٩٦ ـــ الأعراف .

ويقول تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ٦٦ ـــ المائدة .

٧ – الشكر على النعمة بالقلب واللسان وفعل الطاعات وترك المحرمات والإنفاق في سبيل الله يعد سبباً من أسباب سعة الرزق ، كما أن كفر النعمة يعد سبباً من أسباب ضيق الرزق أو زواله ، يقول تعالى ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ٧ ـــ إبراهيم .

ويقول تعالى ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكانٍ فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ ١١٢ ـــ النحل ، ولقد أشارت الأحاديث النبوية إلى ذلك ، قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » ، وقوله ﷺ « وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم ما أمطروا » .

أما عن الإنفاق فى سبيل الله بصفته أحد أسباب سعة الرزق ، يقول الله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ ٣٩ ـــ سبأ .

كما ورد عن رسول الله ﷺ عدة أحاديث منها قوله :

« ما نقص مال عبد من صدقه » رواه مسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح وهو يتفق فى معناه مع الآية سالفة الذكر ، « قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك » متفق عليه ، « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً » متفق عليه .

٨ – التقوى من أسباب سعة الرزق لقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ٢ ، ٣ ـــ الطلاق .

كما أن شدة إيمان العبد وقربه من ربه وإخلاصه له وانشغاله بعبادته تعد من أسباب الرزق ، بل إن الله عز وجل يكفيه مؤونته ويرزقه من حيث لا يحتسب ، قال تعالى عن مريم ابنة عمران رضى الله عنها ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ٣٧ ـــ آل عمران .

٩ – كثرة الإستغفار تعد من أسباب سعة الرزق ، قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارا ﴾ ١٠ ـــ ١٢ نوح

وقال رسول الله ﷺ « من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود .

١٠ – الدعاء بالرزق يعد من أسباب الرزق فقد ورد من أدعية النبى ﷺ قوله « اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى » رواه مسلم .

قال الله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ ٦٠ ـــ غافر .

ومن شروط قبول الدعاء ألا يستعجل العبد الإجابة لقوله ﷺ « يستجاب

لأحدكم ما لم يعجل يقول قد دعوت ربى فلم يستجب لى » متفق عليه .

وإذا كان الدعاء أحد أسباب الرزق فإن الدعاء لا يستجاب من العبد إلا إذا كان رزقه حلال مطعمه ومشربه وملبسه .

قال رسول الله ﷺ « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » ، وقال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » رواه مسلم .

١١ – صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، يقول رسول الله ﷺ « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » متفق عليه .

١٢ – إن العبد قد لا يأخذ بهذه الأسباب السابق ذكرها ومع ذلك يبسط الله له الرزق ، وقد يأخذ بها ولكن الله يمسك عنه الرزق والسبب من وراء ذلك الإبتلاء يقول تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ – الأنبياء .

والحكمة من وراء هذا الإبتلاء إمتحان صدق إيمان العباد فإن صبروا على الضراء وشكروا فى السراء ورضوا بالقضاء فلهم من الله الرضا ورفع الدرجات وزيادة الحسنات ومحو السيئات ، وإن كفروا بأنعم الله وسخطوا بالقضاء فلهم من الله السخط وسوء الحساب .

وقد يبتلى الكافر والعاصى بسعة الرزق أوضيقه لعله يتذكر فيرجع عن كفره ومعاصيه .

١٣ – إن الله إذا أراد أن يستدرج عبده بسط له فى الرزق فيكون عليه نقمة فى الدنيا والآخرة . قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ١٨٢ ، ١٨٣ – الأعراف .

وقال تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ٥٥ ، ٥٦ – المؤمنون ، وقال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ٨٥ – التوبة .

وقال رسول الله ﷺ (إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما

يحب فإنما هو استدراج ثم قرأ « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ») أخرجه الإمام أحمد .

ولله فى تحديد الأرزاق وتوزيعها بين العباد حكم بالغة لا يمكن حصرها والإحاطة بها . وطالما أن العبد المؤمن متيقن بأن رزقه من عند الله وحده وأنه مكتوب ومقدر فإن الواجب الدينى يطالبه أثناء سعيه لطلب الرزق والأخذ بأسبابه أن يضع نصب عينيه ثلاثة أمور هى :

١ – أن يسعى لطلب الرزق الحلال الطيب ويتجنب الرزق الحرام ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ١٧٢ ـــ البقرة ، وقال ﷺ « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ماحل ودعوا ما حرم » .

٢ – ألا يشغله طلب الرزق ولو كان حلالاً عن ذكر الله وأن يحذر من الافتتان بحب المال والحرص على جمعه وأن يكون ذلك أكبر همه وشاغله الأكبر ، فالعاقل يجب أن يعلم بأن طلب الرزق وجمع المال ليس غاية وإنما وسيلة للتعفف والتقرب إلى إلى الله بالطاعات وأن حبه وهمه الأكبر يجب أن يكون متعلق بذكر الله والتزود لما بعد الموت وإيثار الحياة الباقية على الحياة الفانية ، يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ٩ ـــ المنافقون .

ويقول تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ٢٤ ـــ التوبة ، ويقول تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ ١١ ـــ الجمعة .

٣ – إذا كان له حاجة عند أحد من الناس فليطلبها بعزة نفس ولا يهن نفسه ولا يذلها فإن الأمور تسير بمقاديرها .

قال رسول الله ﷺ « أطلبوا حوائجكم بعزة فإن الأمور تسير بمقاديرها » .

الفصل الثالث

الزواج

« على ضوء قضية الجبر والاختيار »

هناك حقائق ثابتة يجدر الإشارة إليها وهي :

١ - لا ينبغي للإنسان العاقل أن يتزوج بعلمه واختياره من إحدى العاهرات اللاتى لا دين ولا حياء ولا أخلاق لهن ، ثم يفترى على الله الكذب بعد ذلك ويزعم أن الله ألزمه بهذا الزواج وأجبره عليه فلا حيلة له لدفع هذا القدر ولا مفر منه .

٢ - لقد حض رسول الله ﷺ على اختيار الزوجة التى تتوافر لديها صفات التقوى والصلاح فقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم ، واستنكر على الرجل أن ينكح المرأة لمالها أو لجمالها أو لحسبها ونسبها فقد ورد عنه أنه قال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه .

« من تزوج امرأة لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءه ، ومن تزوجها ليغض بها بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه ابن حبان .

« لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين » رواه عبد بن حميد .

« إياكم وخضراء الدمن ، قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » رواه الدار قطنى .

وفى المقابل فإن رسول الله ﷺ حض الرجل على اختيار المرأة الصالحة ، قال رسول الله ﷺ :

« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم .

« ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى عرضه وماله » رواه أبو داود .

« من سعادة إبن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ، ومن شقاوة إبن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء » رواه أحمد بسند صحيح .

« من رزقه الله إمرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الباقى » رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد .

ويضع رسول الله ﷺ تحديداً للمرأة الصالحة بأنها الجميلة المطيعة البارة الأمينة فيقول « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » رواه النسائى وغيره بسند صحيح

٣ – وما ينطبق على الرجل ينطبق أيضاً على ولى أمر المرأة فإنه لا ينبغى له أن يزوجها باختياره من رجل لا دين ولا حياء ولا أخلاق له وتوافقه المرأة على ذلك ، ثم يفتريان على الله الكذب بعد ذلك ويزعمان أن الله عز وجل ألزمهما بهذا الزواج وأجبرهما عليه فلا حيلة لهما لدفع هذا القدر ولا مفر منه . من الملاحظ فى هذا العصر بالذات أن معظم الأسر فى جميع المجتمعات الإسلامية للأسف الشديد يختارون لإبنتهم الرجل الذى لديه المال أو الجاه أو الجمال أو العلم الدنيوى أو الشهرة كأن يكون فناناً أو رياضياً مشهوراً أو ينتمى لأسرة بارزة فى المجتمع ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يكون فاجراً أو فاسقاً ليس له خلق ولا دين ولا أمانة ، لقد ظنوا أن سعادة ابنتهم مع مثل هذا الرجل وهذا إعتقاد خاطىء لأن هذه الصفات جميعها أو إحداها إذا توفرت فى رجل ليس عنده خلق ودين فسوف تجعل منه فى أغلب الأحيان رجلاً مغروراً متكبراً أنانياً سىء الطبع يسىء معاملة زوجته ومعاشرتها وقد يتجه إلى حياة اللهو والفسوق فلا تشعر زوجته معه بالسعادة والطمأنينة والأمان .

إن الإسلام لا يمنع المرأة أو ولى أمرها من اختيار الرجل الذى يجمع بين الخلق والدين وبين المال أو الجاه أو الجمال أو العلم الدنيوى فكثير من الشباب على مثل

ذلك والحمد لله ، المهم ألا تخلو صفاته من الخلق والدين لأنه بلاشك سيتقى الله فيها فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها ، وإن كره منها خلقاً رضى منها غيره .

قال رسول الله ﷺ « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ باختيار الرجل الذى يتحلى بالخلق والدين فقال ﷺ « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » رواه الترمذى ، وفى رواية « وفساد كبير » ، وتوضيحاً لهذا الفساد أن الأسر إذا أغلقت أبوابها فى وجه من لا يملك سوى الخلق والدين ولم يجد من يزوجه فربما افتتن فى دينه واتجه إلى طريق الإنحراف الجنسى أو اللجوء إلى الوسائل غير المشروعة لتحقيق الثراء أو الجاه اللازم للزواج إذا وجد نفسه مضطراً إليه ليغض به بصره ويحصن فرجه ، وسيعزف كثير من الشباب عن التمسك بالقيم الدينية والأخلاقية لأنها لن تحقق له الإستقرار العائلى من وجهة نظر المجتمع الذى يعيش فيه وسيصرف جل اهتمامه ووقته لتحصيل المال والعلم الدنيوى ليتزوج من شاء من النساء ويهدم ما بينه وبين ربه ولا يتزود بالعلم الدينى فيصدق عليه قوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ٧ ــ الروم ، وهذا هو شأن من اكتفى بتحصيل علوم الدنيا وترك العلم الدينى ، وبذلك تنهار المثل العليا فى المجتمع عامة وبين الشباب خاصة إلا من رحم الله .

كما أن ولى أمر المرأة إذا أنكحها لرجل عنده الدنيا وليس عنده شيئاً من الدين والخلق فلن يتقى الله فيها وبذلك تنقلب حياتهما إلى تعاسة وشقاء وينعدم بينهما الحب والإخلاص ، وفى ظل ذلك كله إما أن يفتنها فى دينها وأخلاقها فتكتسب منه كثيراً من صفاته المذمومة وسوء خلقه وقد تقلده وتنحرف مثله ، وإما أن يمنعها دينها وحياؤها من مجاراته فتصبر على هذه الحياة التعيسة على مضض حفاظاً على مستقبل أولادها من التشرد ، وإما أن تنتهى حياتهما بالطلاق وما يترتب عليه من الضياع والتشرد لها ولأولادها .

ومعلوم أن الأولاد إذا انعدمت لديهم القدوة الصالحة والمثل العليا فى الأب أو الأم

أو الاثنين معاً اكتسبوا سوء الخلق وقلة الوازع الدينى ، وإذا عانوا من كثرة الخلافات بين الأب والأم وما قد تسفر عنها من طلاق وتشرد فإن ذلك يؤثر فى سلوكياتهم النفسية والإجتماعية .

ما سبق ذكره يعد إيضاحاً لمعنى الفتنة والفساد الكبير الذى حذر منه رسول الله ﷺ « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وإذا كان من الواجب على المرء حسن اختيار صديقه ، ومجالسة الجليس الصالح وليس الجليس السوء ، ومؤاكلة التقى وليس الفاجر وخاصة داخل بيته ، وهذه أمور حرص عليها الإسلام وأمر بها ، فإن حسن اختيار الرجل لزوجته والمرأة لزوجها أولى وأوجب نظراً لمتانة العلاقة الزوجية التى سترتبط بينهما وطول المعاشرة والمجالسة والمؤاكلة التى ستجمع بينهما وتأثر أولادهما فيما بعد بالسلوك الأخلاق لكل من الأب والأم فضلاً عن إمكانية التأثر السلبى لأحد الزوجين بالآخر .

قال رسول الله ﷺ « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح ، وقال « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » رواه أبو داود والترمذى باسناد حسن ، وقال « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » متفق عليه .

٤ – إن هذا الإرشاد والتحذير الذى امتلأت به جميع الأحاديث النبوية سالفة الذكر والتى تدعو إلى ضرورة اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة على أساس من الخلق والدين لهو أكبر دليل على أن اختيار الإنسان له دخل فى أمور زواجه وأنه يسير جنباً إلى جنب مع مشيئة الله .

٥ – إن المؤمن الصادق هو الذى يجد فى المرأة ذات الخلق والدين الإشباع الكامل لعقله وفؤاده وهواه ، لأنها تشاركه حلاوة الإيمان ، وصفاء النفس ، ونقاء الجوهر ، وحسن الخلق ، وسيبنى اختياره الحر على هذه الدعائم والأسس مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ ٢٦ ـــ النور .

ومن أجل ذلك نجد أن الرجل المؤمن الصادق إذا تزوج امرأة لدينها وأخلاقها ثم تبين له بعد زواجه منها أنها ليست أهلاً لذلك ، أو تزوجها دون رغبته واختياره فإن حياتهما ستنعدم فيها السعادة والتفاهم والطمأنينة والاستقرار نظراً لاختلاف الميول والأهواء ، مما يؤدى حتماً إلى التعاسة والشقاء والنزاع الدائم المستمر الذى قد يؤدى إلى الطلاق .

أما الرجل الذى ليس له خلق ولا دين فلن يجد الإشباع الكامل لعقله وفؤاده وغرائزه إلا فى المرأة التى تشاركه تلك الصفات ، وسيختار المرأة التى يجد من تصرفاتها وسلوكها الباطل ما تهواه نفسه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ ، وسيختارها لجمالها أو لمالها أو لحسبها ونسبها .

وإذا تزوج هذا الرجل من امرأة ذات خلق ودين ، فإن اختلاف أخلاقهما وميولهما سيؤدى حتماً إلى الشقاء والنزاع ، وقد يؤدى إلى الطلاق .

٦ – للعبد أن يختار بحريته من يشاء ، فإذا شاء الله لهذا الاختيار أن يثمر حدث الزواج ، وإذا لم يشأ الله لم يحدث .

فهو اختيار حر من العبد ، وعلم سابق من الله بما سيختاره العبد ، ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد أو لا يحدث .

وإذا قدر الله لعبده أن يتزوج امرأة بعينها أحدث انسجاماً بين اختيار عبده وإرادته جل شأنه لهذا الزواج أن يحدث ، فكان ما اختاره العبد بحريته هو عين ما قدره الله له .

٧ – إن الله قد شرع للبكر أن تستأذن ، وللثيب أن تستأمر إقراراً بحق المرأة فى الاختيار ، وهذا دليل على أن الاختيار ضرورى للزواج ، وأنه حق مشروع للإنسان بنوعيه

وإذا كان الطلاق هو أبغض الحلال عند الله ، فلا يمكن للحدث البغيض أن يجبر الله عليه عبده أو يكرهه عليه ، ولكنه أيضاً يتم باختيار الإنسان ويسير هذا الاختيار جنباً إلى جنب مع مشيئة الله .

٨ – من الأمور المستثناه والتى يجب التنويه عنها أن زواج رسول الله ﷺ تم أكثره بمشيئة الله وحده نظراً لأهمية هذا الحدث وأثره فى العقيدة الإسلامية وفى دعم أسس الدين وأحكامه .

ليس هذا فحسب ، بل إن زواج رسول الله ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش ، قد تم بأمر من الله لا اختيار للنبى ﷺ فى ذلك ، فما يكون له أن يعصى لله أمراً ، فقد كانت زينب زوجة لزيد بن حارثة الذى تبناه رسول الله ﷺ ، وكان من عادة قريش أن الرجل لا يحل له أن يتزوج إمرأة إبنه من التبنى مثله كمثل الإبن الحقيقى ، فأراد الله أن يبطل هذا الاعتقاد والعرف الخاطىء ، فأمر نبيه ﷺ بهذا الزواج ونزل قوله تعالى :

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا ﴾ ٣٧ ــ الأحزاب .

وزوجات النبى ﷺ كما نعلم كلهن أمهات للمؤمنين يحرم على المؤمنين التزوج منهن ، ولذلك فقد اختارهن الله وأحصاهن عدداً .

وقد فوض النبى ﷺ أمر زواج ابنته فاطمة الزهراء إلى الله عز وجل فاختار الله على بن أبى طالب كرم الله وجهه زوجاً لها .

٩ – إذا كان لاختيار العبد شأن فى زواجه كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، فإنه مما لا شك فيه أن الأمور المترتبة على الزواج كالعقم ، والانجاب ، ونوع الذرية ، وعددها ، وأحجامها ، وتكوينها ، وألوانها ، وأعمارها ، وأرزاقها ، وتحديد موقفها من السعادة أو الشقاء ومن الهداية أو الضلال ، كلها أمور تتم بمشيئة الله وحده دون تدخل لمشيئة الزوجين واختيارهما مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾ ٤٩ ، ٥٠ الشورى .

سلوك المسلم المؤمن
(على ضوء قضية الجبر والاختيار)

بعد أن فرغنا بحمد الله من عرض قضية الجبر والاختيار ، فإنه من الواجب على المسلم المؤمن أن ينقى قلبه وسريرته مما يغضب الله ، وأن يفعل الخير ويسعى فى سبيل طاعة الله ومرضاته مهتدياً بكتاب الله وسنة نبيه ، متوكلاً على الله غير متواكل ، مستغلاً فى قضاء حوائجه الدنيوية ما منحه الله من طاقات وإمكانيات ، باذلاً ما فى وسعه من الجهد والعرق والعمل الجاد المتواصل لتحقيق السعادة لنفسه وللآخرين ، متحلياً بالصبر والمثابرة وقوة التحمل فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، داعياً الله أن يكلل مساعيه بالتوفيق والفلاح .

وإن خانته الأسباب وعجز عن الإتيان بشىء ليس فى استطاعته إلتجأ إلى خالق الأسباب والمسببات الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء لكى يجد عنده مخرجاً من الهم والكرب محققاً بذلك حسن التوكل على الله بأسمى معانيه الأمر الذى يختلف تماماً عن التكاسل والتواكل ، واثقاً من توفيق الله له ، صابراً على ما يصيبه من شدائد وأهوال ، مؤمناً بقضاء الله وقدره ، فاعلاً الخير كل الخير ، مبتعداً عن الشر كل الشر ، تاركاً مصيره لله تعالى لا يهتم إن كان مسيراً فى بعض الأمور أم مخيراً فيها ، واثقاً من عدالة الله المطلقة وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وأنه لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس هم الظالمون .

كلمــة حــق

بعد أن هدانا الله إلى الكشف عن بعض الحقائق المتعلقة بموضوع الجبر والاختيار ، أفلا يجدر بنا أن نقنع بقوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ بدلاً من الخوض فى متاهات ذلك الموضوع المترامى الأطراف الذى يتضمن عديداً من الأسرار والحكم الإلهية لا يعلمها إلا الله ولا يمكننا الكشف إلا عن قدرٍ يسيرٍ منها نتكبد فى سبيله كثيراً من الإرهاق الذهنى والتفكير المضنى ثم لا نصل فى نهاية المطاف إلا إلى حقيقة واحدة أجمعت عليها أطراف ذلك الموضوع المتشابك بما فيه من أسرار وحكم وهى ما ذكرته الآية الكريمة ﴿ وما ربك بظلامٍ للعبيد ﴾ .

« ملخـــص »

ما ورد فى هذا البحث

حول موقف الإنسان إزاء قضية الجبر والاختيار

هل الإنسان مسير أو مخير ؟

١ – الله يريد الخير والشر على السواء ولكنه يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا عن الخير فقط .

٢ – إن الله يريد للشر أن يحدث حتى يقيم الحجة على المذنب يوم القيامه ، وحتى يجد الخير مجالاً واسعاً لممارسة نشاطه فى الحياة الدنيا ، وحتى تتحقق أسماء الله وصفاته على خلقه ، فهو الغافر للذنب القابل للتوب ، ورُب شر يعود بالخير على من أصيب به .

٣ – إن الله يأذن للمعصية أن تحدث إذا وجد عبده عاقداً العزم على الإتيان بها ويترك المبادرة بالنية دائماً لعبده ثم يختم على قلبه بالهداية أو الضلال وفقاً لما أضمره عبده فى قلبه .

٤ – إن الله عز وجل قد أمد النفس البشرية ،حين خلقها بقسط متساوٍ من التقوى والفجور ، وحدد لها مصادر الخير والرضوان متمثلاً فى التعاليم السماوية ، فإذا ارتقى الطفل فى النمو إختل ميزان الخير والشر ، فمن النفوس من ترتقى إلى الصفات الملائكية حيث الروحانية والشفافية ، ومنها من تهوى إلى الصفات الحيوانية حيث الشهوة والرذيلة ، وبين هذين النوعين من الصفات درجات متفاوتة من الصلاح أو الفساد .

٥ – إن الإنسان مخير فيما يحاسب عليه يوم القيامة من خير أو شر ، وما يأتى به من أعمال تجلب له الحسنات أو السيئات ويتحدد به مصيره إن كان من أهل الجنة أم من أهل النار ، إذ لا يعقل أن يحاسبه الله على عمل أجبره على تنفيذه إجباراً .

٦ – إن الله عز وجل قد امتلك قلوب العباد ووضعها تحت تصرفه يوجهها ناحية الهدى أو الضلال وفقاً لما يبديه العباد من الأفعال وما يكتمونه من النوايا التى تنم عن الهدى أو الضلال باعتبارهم المسئولون وحدهم عن تلك الأفعال والنوايا .

وبالرغم من أن الله عز وجل هو الموجه للقلوب فإن العبد يُسأل يوم القيامة عن سلامة قلبه كما جاء فى قوله تعالى ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، وذلك لأن سلامة القلب وعمارته بالهدى والإيمان هى النتيجة الحتمية المترتبة على استقامة العبد فى سره وعلانيته ، وتلك الاستقامة فى السر والعلانية هى من مسئولية العبد وحده وباختياره وحده بدليل قوله تعالى ﴿ ويعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ . فإذا أصلح العبد من علانيته وسره هدى الله قلبه وأضاءه بالإيمان ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن طابت سريرته واستقامت علانيته » .

٧ – إن علم الله الأزلى قد سبق قضاءه وقدره وخلقه للأشياء وذلك لأن العلم صفة من صفات ذات الله أما القضاء والقدر والخلق فهى أثر من آثار صفاته تعالى التى هى العلم والإرادة والقدرة .

وتطبيقاً لذلك فإن الله قد علم موقف عبده من العمل الصالح ومن الدعاء المستجاب قبل أن يقدر له مصيره وقبل أن يخلقه فجاءت أقدار العباد وفقاً لأعمالهم وأدعيتهم فعلى قدر ما يتقربون به من الله تتحدد أقدارهم ومصائرهم ، فكأن الإنسان يستطيع أن يرسم لنفسه طريق السعادة أو الشقاء وفقاً لما يقوم به من الأعمال وما يتضرع به من الدعوات الصادقة .

٨ – هناك نوعان من القدر قدر اختيارى وقدر إجبارى فالقدر الاختيارى هو ذلك النوع من القدر الذى تتدخل فيه مشيئة الإنسان جنباً إلى جنب مع مشيئة الله ، وهو عبارة عن علم ومشيئة ، علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد فيبرز إلى حيز الوجود .

والقدر الاختيارى بتعريف آخر هو ما حدث بقصد منك وتعمد سواء أكان خيراً أم شراً .

أما القدر الإجبارى فهو ما أصابك من حيث لا تدرى دون إرادة منك أو تعمد سواء أكان خيراً أم شراً ، وليس فى هذا النوع من القدر مجالاً لاختيار العبد بجانب مشيئة الرب .

والعقل هو مركز اختيار العبد وهو مناط التكليف والمساءلة من الله أما باقى أعضاء الجسم فهى مسيرة ، وإذا كان العقل ذاهباً أو مهملاً أو قاصراً رفع التكليف والمساءلة عن العبد وهذا هو حال المجنون والنائم والصبى الصغير مصداقا لقول النبى عليه الصلاة والسلام « رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » رواه أحمد وأبو داود والحاكم .

٩ – ومن روائع قدرة الله وحكمته حدوث نماذج متعددة لصور الانسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الاثنين وبحيث يتعانقان ويتلاقيان معاً ى النهاية فى خط واحد ومفهوم واحد .

وهذا الانسجام أمر لا بد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولا فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس

وانطلاقاً من هذا الانسجام يمكن القول أن الإنسان قدر له أن يختار بحريته ما يشاء من الأعمال ، ثم إن هذه الأعمال التى اختارها ترتب عليها ما قدر له من الجنة أو النار ، أى أنه قدر له أن يختار بارادته وحريته أموراً ترتب عليها ما قدر له ، وبذلك تصبح هذه المعانى والمفاهيم الثلاثة سليمة لا غبار عليها ، وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان قبل أن يختار وبعد أن اختار دون ظلم أو إجبار .

١٠ – وليس حتماً بأن يحدث الإنسجام بين القدرين ولا أن تولد المسببات بمجرد الإتيان بالأسباب فمشيئة الله لا تخضع لقانون ثابت ، فقد يأتى الله بأقدار إجبارية لا تنسجم إطلاقا مع الأقدار الإختيارية لكى يبرهن على أن المسببات من صنع يديه

وليست وليدة الأسباب كما يتوهم البعض .

١١ - إن الابتلاء يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ، وإن الناس ثلاثة أصناف صنف يفسده انقلاب حاله من العسر إلى اليسر ، وصنف يفسده انقلاب حاله من اليسر إلى العسر ، وصنف لا يتزعزع إيمانهم إذا انقلبوا من حال إلى حال ، وقد يبتلى العبد فى آخر عمره فيختم عمله بما كان منه ويتحدد مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .

١٢ - إن العمل مطلوب ولكنه ليس إلا وسيلة لطلب الرزق ، أما الرازق الحقيقى فهو الله جل شأنه ومشيئته لا تخضع للأسباب والمسببات فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ومن الواجب على الإنسان ألا يقعد عن طلب الرزق ، فطالب الرزق لا بد له من بذل الجهد والعمل والأخذ بالأسباب ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأن يتوكل على الله بقلبه ويسأله الرزق والعطاء .

١٣ - الزواج من الأمور التى للإنسان اختيار فيها بجانب مشيئة الله ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، وإذا قدر الله لعبده أن يتزوج إمرأة بعينها أحدث إنسجاماً بين اختيار عبده وإرادته جل شأنه لهذا الزواج أن يحدث ، فكان ما اختاره العبد بحريته هو عين ما قدره الله له .

١٤ - إننا نخرج من هذا الموضوع المترامى الأطراف بكل ما فيه من أسرار وحكم بالغة إلى حقائق ثابتة وهى أن الله عز وجل تعالى عن الظلم علواً كبيراً فلا يظلم أحداً من خلقه ، وأن إرادته نافذة ومهيمنة على هذا الكون بأكمله ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأن تحركات الإنسان وسكناته هى فى مقدور الله عز وجل ، وأن الإنسان رغم حريته الكاملة فى الإختيار ورفع الظلم عنه إلا أنه لا يخرج عما قدره الله له .

تم بحمد الله

محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ١٨٠٦ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : 4 - 1113 - 00 - 977